مذكرات سجين

١

اجابة لرغبة الكثيرين من الاصدقاء والمفكرين ننشر فيما يلي كل ما وعته ذاكرتنا مما أصبنا به في قضيتنا الكبرى المعروفة لدى سكان البلاد العربية ليطلع الرأي العام على ما وقع في هذه القضية من الغرائب والعجائب وليحفظ التاريخ بين طياته ما حدث من الامور المنافية للاخلاق والمنافية للقانون والعدالة ، وليعرف كبار رجال الحكومة في فلسطين ما يجريه بعض صغار الموظفين

هذا واننا سنتوخى في مذكراتنا هذه الحقيقة بعينها ونبين الحوادث مسهبة مع شرحها فتأتي على اكثر مما قيل في التحقيق وسرد امام المحكمة وسنجمع هذه المذكرات بعد انجازها ونطبعها في كتاب خاص ونترجمه الى اللغة الانكليزية عند الانتهاء واملنا كبير في ان القارئ سيستفيد من مطالعة المذكرات فوائد جمه لم يكن من السهل الاطلاع عليها ومعرفة ما يجري تحت طي الخفاء

[يوم القاء القبض !]

بينما كنت مستغرقا في النوم صباح الجمعة الواقع في ٢٦ حزيران سنة ١٩٢٤ شعرت بحركة غير عادية تجري حولي فاستيقظت مذعوراً ونهضت من فراشي مهرولاً نحو الباب فكان والدي اول من وقع عليه نظري فبعد ان قبلت يده قال لي ان اناساً يطلبونك على الباب الخارجي فاسرع وارتد ثيابك لمقابلتهم فلما كدت اتهيأ للمقابلة حتى سمعت قرع الباب الخارجي بشدة لا مزيد عليها وسمعت جلبة وصياحاً شديدين اضطراني لان اطل من نافذة غرفتي فاذا بهم جنود البوليس يتقدمهم ضابط لم اعرفه لاول وهلة لوجود الشجر حاجزاً بيني وبينه ومن ساعتي اسرعت فتوضأت ولم اكد ابدأ في صلاتي حتى كثر الضجيج وعلا الطرق على الباب وسمعت صوتاً يصيح اين سليم؟ فقطعت الصلاة وخرجت من الباب فاستمهلتهم بضعة دقائق لبينما اتمم فرض الصلاة وعبثاً حاولت فاضطررت ان اخرج من البيت لساعتي ولما دنوت من الجنود عرفت الضابط الذي يرافقهم وكان محمد افندي الجاعوني فقال لي هلم واسرع بالخروج فقلت لهم ما ذا تريدون؟ اجابني بان سعادة القومندان يريد مقابلتك فهلم واذهب معنا . فقلت له ولم كل هذا الاهتمام حتى يحضر ضابط بجنود شاكي السلاح ليستدعوني لمواجهة القومندان اما كان يكفي ارسال تذكرة او خبر الي فأسرع للمجيء ؟ فقال لا ادري هلم بنا فسرنا بعد هذا الحوار القليل وسار الضابط الى يساري والجنود ببنادقهم ورصاصهم خلفي فما كدت اخرج من باب الدار الخارجي حتى شاهدت الجنود تغدو وتروح في الطريق المؤدي الى دار الحكومة ورأيت امام السراي ثلة من الجنود البريطانية وعدة سيارات ضخمه مصفحة رابضة هناك ورأيت قوات عسكرية مختلفة من درك وطني وبوليس من بوليس الحدود محيطة بدار الحكومة والممر الذي نسير فيه فشعرت انني ذاهب للسجن وايقنت ان هذه القوى العديدة كلها مهيأة لالقاء القبض عليّ وان المؤامرة التي كنت شكوت امرها لفخامة المندوب السامي ورؤساء حكومة فلسطين قبيل سجني بأيام مما سيأتي ذكره قد بُدئ بتنفيذها واحسست بقوة معنوية كبيرة تدفعني للنشاط والجرأة لا اذكر انني احسست بها من قبل ، وايقنت ان الحق لا بد وان يتغلب على الباطل وليقيني بأني بريء كل البراءة مما قد يُنسب اليّ وليس لي من ذنب الا وطنيتي واخلاصي لامتي وخدمتي لبلادي وكنت تراني اسير بخطى واسعة يكاد الجنود يتضايقون من مماشاتهم لي على منوالها ، وكان السرور يملأ قلبي لعقيدتي بأني سأذهب للسجن لا لذنب اقترفته او جريمة ارتكبتها بل في سبيل الامة العربية ، وفي سبيل الامة العربية وحدها فأهبت بنفسي الطروب ان سيري ولا ترهبي الباطل والظلم ففي سبيل الله والوطن لذيذ هو التعب والشقاء وسيظهر لك ايها القارئ جلياً كيف انه لم يكن لي من ذنب في هذه القضية الكبرى سوى وطنيتي واخلاصي

سرت بهذه الروح وتلك العقيدة عقيدة ظهور الحق وزهوق الباطل وانتصار العدل على الظلم ، فما وصلت باب السراي حتى ازدادت حركة الجنود وانتشروا من اطرافي الاربعة حاملين سلاحهم وهم على تمام الأهبة للمحافظة عليّ ومنع كل من يدنو مني وكان المار من امام السراي في تلك الساعة عند ما يرى كثرة الجنود على مختلف اجناسهم والسيارات العديدة يبهت ويظن ان طولكرم اصبحت ساحة حرب وميدان وغى

دخلنا السراي على هذا الشكل الرهيب والقوى تحتاط المنافذ والطرق وأدخلت الى غرفة خالية من الناس فدخل عليّ رجل قصير القامة يلبس قبعة بيضاء وثياباً ملكيه وفي عينيه شيء من الحول فبادرني بالتحية العربية فرددت تحيته وسألته من انت ؟ فقال انا شترايت ؟ فعرفت انه غير عربي فسألته عن جنسيته فأجابني بأنه يهودي وانه ضابط تحقيق حيفا . فقلت له ولم اتوا بي الى هنا ؟ فقال لا ادري وعلى الاثر دخل الغرفة ضابط برتبة ملازم اول معتدل القامة اشقر شعر الشاربين عرفته قبلاً وهو جميل افندي العسلي ويشغل وظيفة ضابط تحقيق في يافا فسألته بعد ان حياني عن سبب الاتيان بي على هذه الصورة فقال اظن ان سعادة قومندان بوليس لواء السامرة يريد ان يقابلك . وبعد قليل دخل علينا ضابط طويل القامة نحيف البنية واسع العينين يرتدي بذلة عسكرية وعليه رتبة ملازم اول عرفته من قبل ايضاً ويسمى حسن افندي محمد .

« يتبع »

« سليم عبد الرحمن »

***

مذكرات سجين

٢

تركنا القارئ في الاسبوع الماضي بصحبة الضابط حسن افندي محمد الذي يشتغل منذ مدة في بوليس فلسطين وكان في ايام الترك بوليساً في مسقط رأسه بلده الاصلي مكة المكرمة ونقل لبيروت فنابلس وبقي فيها الى مابعد الاحتلال . عرفته من سنتين وكان مخصصاً للنظر في القضايا من الوجهة العدلية فلدى دخوله جلس الى يميني وبيده ملفات خضراء تشتمل على اوراق عديده ولدى سؤالي أياه عن احضاري على هذه الحالة لدائرة البوليس قال لي ان سعادة القومندان يريد ان يقابلك لاشياء ستعرفها بعد قليل ولم تمر هنيهة حتى دخل محمد افندي الجاعوني وبذلك كمل عدد الضباط اربعة جاس الى جانب المنضده عن اليمين اثنان يقابلهما عن اليسار مثل هذا العدد وانا جالس في منتصفهم وبعد قليل سمعت الجندي يتهيأون لاخذ السلام ولما رأيت الضباط يستعدون لمثل ذلك ايقنت ان قومندان البوليس المستر كويكلي هو القادم فقلت في نفسي انها الفرصة سانحة ابث فيها شكواي للقومندان على ما يجرى في شأني من قبل بعض موظفيه الامر الذي دعاني لان ارسل برقيات بهذا المعنى لفخامة المندوب السامي ومدير الامن العام ولم يمض على ذلك زمن قليل حتى قرع الباب ودخل منه ضابط بوليس عرفته من سنين عديدة فانتصب الضباط قائمين وهم على اتم ما يكون من النظام واذ ذلك دخل الضابط القادم والذي سيكون له نصيب وافر من هذه المذكرات فجلس على كرسي الرياسة وهو في مقتبل العمر ذو عينين سوداوين معتدل القامة حنطي اللون مقصوص الشاربين تعلو وجهه ابتسامة خفيفة وعلى كتفه ثلاث نجمات وهذا الضابط هو السيد عابدين الحشيمي الذي يشغل وظيفة مساعد قومندان بوليس نابلس وهو بطل روايتنا هذه كما سيأتي فبادرني بالتحية المصطنعة وهي تحية الشامت فسألته عن القومندان الذي طلبت لمقابلته فقال لي انا الذي ساقابلك واعلمك بأنه يوجد لدينا بعض شهادات تتعلق بك نود ان نسمعك اياها لتبين ان كان لك اعتراض ما عليها ؟ فاجبته باني لا استطيع ان اعطي اي افادة بحضور ضباط البوليس وامام هيئة انت ترأسها لما بيننا من العداء السياسي والشخصي كما تعلم فاذا كان هناك شهادات او غيرها فرجال القضاء هم وحدهم الذين استطيع بسط افادتي امامهم فقال لرفاقه الضباط احضروا لنا حاكم الصلح سريعاً وفي اثناء ذلك كان بعض من ذكرت من الضباط يخرج من الغرفة ويعود وقد طلب السيد عابدين قهوة فقدمها الي فسألته عن سبب كل هذا الاهتمام باحضاري ولم كل ذلك واعترضت على تلك المعاملة وابنت له ان غيري ممن دعوا لاعطاء الافادات لم يروا مثل ذلك الارهاب وتلك القوى فتمتم بكلمات لا تشفي عليلاً ولا تروي غلة وبعد هنيهة حضر حاكم صلح طولكرم رفيق افندي ابي غزاله ودخل الغرفة ولم يكن فيها غير الضباط الاربعة وعلى رأسهم السيد عابدين الذي بعد ان جلس حاكم الصلح امر باحضار احد الشهود فأدخل شخص يرتدي غنبازا وكفية وعقالاً طويل القامة وفي مقتبل العمر يدعى حافظ حمدالله عرفته من قبل فاجلسه السيد عابدين على كرسي بجانبي واخذ حسن افندي محمد يقرأ عليه افادة كان قد اداها قبلاً وسأله ان كان يصادق عليها امام حاكم الصلح ام لا ؟ فاجاب بانها افادته وانه املاها على البوليس وخلاصتها اني كلفته ان يدخل في عداد عصابة الغرض منها الاعتداء على كل من خالف الوطن واني طلبت منه ان يهيء لهذه العصابة رجالاً برواتب معينة وان ذلك كان في بيته منذ مدة طويلة الى آخر ماهنالك من الافادات التي سأتي على ذكرها في اوراق التحقيق وطلب السيد عابدين مني بعد ان وقع حافظ حمد الله على افادته ان اجيبه عليها فقلت:

« نظراً للعداء السياسي والشخصي الموجود بيني وبين عابدين الحشيمي مساعد قومندان بوليس لواء نابلس منذ سنة ٩١٩ في ايام الحكومة العربية بدمشق وذلك بسبب المظاهرة الوطنية الكبرى التي قامت ضده في الشام يوم قدومه اليها مع السر مارك سايكس وذلك لذهابه وهو في بلاد الانكليز الى اللجنة الصهيونية مرتدياً جبة وعمامة مع شخص آخر وادعائه انه يمثل المسلمين في فلسطين وانه يرحب بمجيء اليهود اليها وان اهل فلسطين يقبلون بوعد بلفور، ونسبته تلك المظاهرة الي لوجودي آنئذ رئيساً للنادي العربي في دمشق ولعدم استخدامه في الحكومة العربية مؤخراً بعد خروجه من الاستخبارات الانكليزية ودوام هذا الخصام السياسي والشخصي الى يومنا هذا كما بينته في برقياتي العديدة التي ارسلتها لجميع المراجع الرسمية في فلسطين كما يتضح لكم من ايصالاتها الرسمية ، وبما ان السيد عابدين هو الذي يرأس هيئة الضباط الذين هم في معيته والذين هم دونه رتبة لا سيما وانه ذهب لاماكن مختلفة مع اشخاص عديدين لتهيئة شهود ضدي انتقاماً مني مما سأثبته امام رجال العدالة ، لذلك اكون معذوراً اذا انا امتنعت عن اعطاء اي افادة امام اي موظف من موظفي دائرة بوليس لواء السامرة الذين هم اخصامي سياسياً وشخصياً ، على انني مستعد لاعطاء افادتي لدى اي موظف عدلي لأبين براءتي من كل ما نسب الي وديو بمساعي اخصامي »

وبعد ان اتممت افادتي هذه ووقعت في ذيلها وكانت علائم الكدر حينذاك تبدو على وجه السيد عابدين وبعض زملائه لافادتي التي ذكرت ملخصها ، ورغم بياني هذا احضر السيد عابدين شخصاً آخر نحيفاً رفيع الوجه والقامة تدل ملامحه وثيابه على انه فقير الحال لم اره في حياتي قط واذكر انه من دير الغصون كما صرح في افادته فقرأ عليه حسن افندي افادة امن عليها قائلاً انها افادتي ، وعلى الاثر سألني عابدين ما ذا تقول وها حضرة حاكم الصلح حاضر ؟ فأجبته بأني أصر على الامتناع عن الافادة للخصومة التي بيني وبينك قديماً وحديثاً وانت كرئيس هيئة ضباط لا اكون اميناً من اعطاء افادتي امامكم ، وبين هؤلاء الضباط من هم اعدائي سياسياً او شخصياً ، حينئذ أخرج الشاهد وقال حضرة حاكم الصلح ان لسليم الحق في اصراره وامتناعه وللحال اخرجني الضباط لغرفة ثانية فقلت الحمد لله ! خلصنا من مجلس الضباط الذي هو اشبه بالمجالس العسكرية . وكان في الغرفة التى أدخلت اليها بضعة نفر اذكر منهم احد كتبة البوليس مكه صادق وغيره وقد تبعني السيد عابدين للغرفة الثانية وقال لي : لم تسيء الظن بي وانا لم اعمل عملاً ضدك فقلت له انت تعرف وانا اعرف ما بيننا من الخصومة ، وقد كان الاولى لك ان لا تقوم بمثل هذه الاعمال التي سيكشف القضاء عنها الستار . وبعد قليل دعيت الى غرفة حاكم الصلح ولم يكن هناك غيره من رجال البوليس سوى حسن افندي محمد مفتش بوليس نابلس فطلب اخذ افادتي فعدت واعترضت على وجود حسن افندي الذي هو تحت امرة السيد عابدين خصمي لا سيما وهو قد اشترك معه بأعمال لا تتوافق والحق قبل ان طلبت لاعطاء الافاده فبادر حسن افندي وطلب اصدار مذكرة توقيف بحقي معتبراً اياي ممتنعاً عن الافادة فأجبته بأني لا امتنع عن الافادة الا في حالة وجود اخصامي رجال البوليس الذين سأثبت خصومتهم واني لا اكون اميناً الا امام رجال القضاء او اي هيئة أخرى غير بوليس نابلس وعلى الاثر أخرجت من غرفة حاكم الصلح الى غرفة ضابط بوليس القضاء فرأيت حركة كبرى وجنوداً كثيري العدد مدججين بسلاحهم الكامل ودخل علي بوليس من فرقة الخيالة يدعى عزة اونباشي يحمل على صدره بيوتاً جلدية تحوي كمية كبيرة من الرصاص وعلى كتفه بندقية وبيده سلال رأيت فيها اوراقاً فعرفت ان دارنا قد فتشت ايضاً بشكل عسكري عظيم لما رأيت من جنود مختلفي الاجناس بجوار السراي . وبعدقليل حضر جاويش يدعى علي افندي الماني ومعه بضعة جنود فقالوا لي هلم واخرج معنا فخرجت معهم الى خارج السراي فأركبوني سيارة ملئت بجنود انكليزية وركب خير الدين افندي بسيسو قائد تلك القوة الى جانب سائق السيارة الانكليزي وكان خلفنا سيارة كبرى ايضاً ملئت بجنود انكليزية وبوليس فلسطيني ، وكان هناك بضعة نفر من الاهلين تجمعوا الى جانب ادارة البريد بينهم المحامي محمد افندي كنعان الذي كان يحييني بابتساماته اللطيفه فسارت بنا هذه القوى متجهة نحو نابلس فعلا بكاء الاهلين وصراخهم وتحركنا الى مدينة نابلس تاركين وراءنا امة مضطربة متهيجة لهذا الحادث الالم

« يتبع »

طولكرم : « سليم عبد الرحمن »

***

مذكرات سجين
٣

في الطريق الى السجن

سارت بنا السيارات مملوءة بالجند البريطاني كما ذكرت قبلاً تنهب الارض نهباً فمررنا في طريقنا بعنبتا وكان يمر بنا بعض القرويين والمزارعين فيستلفت نظرهم وجودي بين الجند البريطاني وعلى تلك الحالة الشاذه فيكتفون بالتحية عن بعد وبالاشارات التي لها معان كبيرة والتي اثرت في نفسي ايما تأثير وتابعنا السير حتى وصلنا مدينة نابلس فمرت بالخاطر ذكريات لذيذة وقد ترجلنا عند مدخل سوق التجار (الخان) وسار امامي ثلاث جنود بريطانيين ببنادقهم والى جانبي السيد خيرالدين بسيسو والسيد الماني وخلفنا بضعة جنود بريطانيين وفلسطينيين حتى مدخل السراي فرأيت فؤادبك عبدالهادي فهاله هذا المنظر الرهيب واشار اليّ اشارات وتبادلت واياه نظرات نفذت الى قلبي علمت منها ماجاش في صدره من انتظار هذا المشهد ودخلنا السراي القديمة حتى باب السجن الحديدي الخارجي فصاح خيرالدين افندي بالحارس ان يفتح الباب فدخلنا ونادى بصوت جهوري ذكي ! ياذكي ! ! فأسرع الينا نفر بوليس على ذراعه شارة واحدة ووظيفته مأمور سجن نابلس . انسان متوسط القامه انقر الوجه اشقر الشعر والشاربين اخضر العينين تبدو علائم الغضب على وجهه يغالي في وضع سيدارته (قلبقه) حتى مغرب حاجبيه . هذا المخلوق يسمى ذكي القدسي من خليل الرحمن وسيكون له نصيب كبير من هذه المذكرات اذ انه بطل روايتنا الثاني وذلك لما شاهدته من اعماله العجيبة الغريبة والتي ذُكرت امام المحكمة . اسرع ذكي القدسي المذكور الي وتسلمني ففتش كل البستي بكل ما اوتيه من دقة وبعد ذلك خرج خير الدين افندي بعد ان سلمني لذكي القدسي الذي اجرى تفتيشي بذلك الاهتمام الشديد وبعد ان قلعني حذائي حاول ان يدخلني الى الغرفة التي خصصت لي بلا حذاء رغم رطوبتها فابيت عليه ذلك وبعد مشادة يسيرة سار امامي واشار اليّ فتبعته ونزل بي الى مكان واسع ادخلني اليه واغلق بابه الحديدي عليّ ولم يكن في ذلك المحل سوى صفيحة ماء للشرب أعدت في المكان من قبل خصيصاً لي ثم القى عليّ وابلاً من الاوامر وتركني وحيداً في ذلك المكان الموحش ولما خلوت بنفسي واجلت نظري في اطراف المكان وجدت اني في محل شديد الرطوبة واسع الارجاء يتوسطه عمود كبير وله بضعة نوافذ تطل على ساحة السجن ولبابه الذي في جانبه نافذة واحدة لايرى منها الا ايوان صغير فقلعت ثيابي واخذت في المسير ذهاباً واياباً وجيئة ورجوعاً في محل سجني الذي هو اشبه بأصطبل حيوانات لرحابته ورطوبته ولظلامه الحالك الذي يلازمه الليل والنهار، منه يسكن للانسان وبعد قليل عاد ذكي القدسي اليّ وقال (شوف يا سليم انت سجين ومجبور على اطاعة كل ما آمرك به ممنوع ان تطل من الشبابيك كذلك ان تقرب من الباب او ان ترفع صوتك او ان تحادث اي انسان على الاطلاق حتى ولو كان جندياً سواي وان خالفت او امري تجازى بشدة ويجب ان تعلم اني مدير السجن فكل شيءٌ تريد المراجعة به ليس لك ان تراجع احداً غيري افهمت ذلك ؟) فقلت له امرك يا ذكي افندي !!! انما يظهر انك نسيت اني جائع و بحاجة للراحة فهل تتكرم عليّ بقليل من الطعام . فقال سأحضر لك اليوم ما تريده من السوق واعتباراً من صباح الغد ليس لك ان تأكل الا من طعام المساجين (عدس وخبز) قال ذلك وذهب وعدت للسير مرة ثانية في سجني فريداً وحيداً واذ ذاك خطر لي ان اترنم في بعض الاناشيد الوطنيه فتلوت واحدة منها واذا بصوت بعيد رهيب ينشد نشيداً وطنياً اثر في نفسي وقلت من هذا الذي يشدو بذكر الوطن ؟ اني اذكر هذا الصوت واكاد لا اعرف صاحبه فمن هو يا ترى ???

« يتبع »

طولكرم : « سليم عبد الرحمن »

***

مذكرات سجين

٤

دنوت من الشباك الذي يطل على ساحة السجن لأعرف صاحب الصوت واخذت اتسمع بحذر شديد لأعرف من هذا الذي يشدو بحماس وحزن بذكرالوطن والعرب . عاد الصوت للنشيد فما العمل ؟ محظور عليّ الاقتراب من الشباك . حبست النفس والقيت باذني نحو الشباك فسمعت النشيد وتمعنته فاذا هو : « نحن لا نرضى الحماية . نأبى الذل : نفدي الوطن » كلمات وطنية بليغة وصوت رخيم اغن ، أهذا صوت عارف عبد الرازق يا ترى ام صوت من ؟؟ بقيت متحيراً ولم اتيقن من صاحب الصوت، قد لا يكون صوت عارف، صوت من اذن ؟ ومن هو ذلك الشاب الوطني السجين الذي يعرف تلك الاناشيد الوطنية . . . وفجأة خفت الصوت وسكنت ضوضاء المساجين في الغرف الاخرى وقرقعت السلاسل واهتزت اركان السجن واذا بصوت جهوري يصيح بشدة :اسكت . فلم يبق من متكلم ولا من يجول بصدره نفس ، وخيم سكوت عميق على جميع ارجاء السجن ، ومن ثم اقترب صاحب الامر مني فتبينته فاذا هو ذكي القدسي . صديقنا !! الغيور علينا !! دنا من الباب تعلو وجهه « الجميل ؟! » علائم الغضب والشدة فصاح بي اقترب من الباب ، فاقتربت ، فقال خذ هذا طعامك اليوم واحرص ان تبقي منهُ شيئاً للغد وحاذر ان تخالف اوامري التي افهمتك اياها واياك واتيان اي عمل يغضبني والا تقع تحت طائلة العقاب الشديد فأجبته « امرك يا ذكي افندي !!! » فسلمني الطعام وذهب فبقيت وحدي اغدو بين جدران غرفتي الواسعة الاطراف الرحبة الارجاء وما زال صاحب الصوت يشغل فكري ، وبعد قليل تغديت بشهية عظيمة وغلب عليّ النوم فتمددت وغرقت في بحره فلم استيقظ الا على صوت السلاسل والقيود الحديدية التي كان يحجل بها المسجونون ، وكان الوقت قبيل الغروب فازداد ظلام غرفتي وبدأ الحرس يستلمون المساجين فأمضيت تلك الليلة السوداء وليس لدي ما يقيني البرد والرطوبة ولا ما اضعهُ تحتي للنوم سوى ثلاث حرامات هي اشبه بالخيش فقضيت الهزيع الاول من الليل غاضباً على الظلم والظالمين وسبحت في بحر من الافكار المختلفة وما كنت اسمع من ثنايا الظلم المخيم سوى انين السجناء وترنم المحزون وصيحات الحراس المتتابعة ومجيء الخفراء بين كل برهة وأخرى للتفتيش على قيود الباب الحديدي باب غرفتي الفسيحة ، فكنت كلما رقدت العين للنوم ايقظها الجندي بهزاته المتتابعة فيتضاعف الم النفس وتزيد نقمتها على الباطل . . .

اخذت النفس مضجعها في القسم الاخير من الليل واستيقظت قبل بزوغ شمس اليوم الثاني على حركات الجنود الذين كانوا يقودون المساجين من غرفة الى أخرى لتنظيفها وغسل ارضها بالماء ، وما كادت الشمس تصل الى قبة السماء حتى قدم عليّ الحبيب !!! ذكي القدسي ينادمني !!! فوقفت احتراماً لجنابه ؟! فقال : كيف امضيت ليلتك عندنا ؟ فقلت له : على ما يرام ياحضرة المدير ! (من شروط الاحترام عند المساجين ان يلقبوا ذكي القدسي بقولهم ذكي افندي او سعادة المدير او ابو داود) فهزّ رأسه باستغراب وعبوسة وفارقني . فعدت بدوري للسير في ذلك المكان الجسيم الى ان اتت نوبتي فخرجت الى ساحة السجن لاتوضأ وما كدت اطأ الساحة حتى علا البكاء والانين من غرف مختلفة داخل السجن فآلمني الموقف ورأيت من نوافذ الغرف المختلفة عشرات المساجين لم اتحقق من اشخاصهم بسبب الظلام المالئ امكنتهم يبكون بأصوات خافتة فزاد المي واهتزت اعصابي ولم أطل الاقامة في الساحة فعدت متأثراً من ذلك الموقف الرهيب . سجن يضم بين جدرانه اشخاصاً مختلفي البلدان والمشارب والامزجة تهولهم رؤية البريء معهم فيبكون ، انهم يشعرون ، وانها لحالة تفتت الاكباد . . .

وقد بقيت الى ما قبل الظهر اسير الفكر والحركة فطلبت من الحارس ان يأتيني بأحد الضباط فغاب وعاد ومعهُ ذكي القدسي فقال لي ماذا تريد ؟ قلت أريد مقابلة احد الضباط . فقال لماذا ؟ قلت له لأمر لا يجب ان تعرفهُ . فصاح بي قائلاً يجب ان تعلم انني مدير السجن فعليك ان تبلغني ما تريد وليس لغيري ان يعلم منك ما تريده قبلي فأصررت على كتمان ذلك عنه واصرّ عليّ ان اتكلم فقلت أريد ان ارى احد الضباط وأحادثه بشيء تسمعه انت ! فتمتم وذهب . وبعد قليل حضر وديع افندي مسعد ، وكان اذ ذاك ضابط بوليس نابلس ، فسألني عما أريد فقلت له انني اود ان تؤخذ افادتي امام رجال القضاء والعدلية لأثبت لهم براءتي وان ما نُسب اليّ زور . فقال سأبلغ طلبك الى اولي الامر ، وذهب .

وقد مضى اليومان الثاني والثالث على سجني وفي صباح اليوم الرابع حضر اليّ ذكي القدسي وقال : ارتد ثيابك حالاً واخرج امامي فسألته الى اين ؟ فأجابني لا حاجة لأن تعرف ذلك ، اخرج حالاً . ولم يمهلني حتى أتمم لبس ثيابي فخرجت مهرولاً بعد ان فُتح الباب الحديدي الى الباب الخارجي حيث رأيت السيد عابدين الحشيمي والسيد حسن محمد والسيد جميل العسلي وبضعة نفر بريطانيين فصافحني الاول مبتسماً وقال سنذهب بك الى طول كرم الآن فهلم بنا . فخرجنا من باب السراي ولا تسل عن مقدار فرحي لدى خروجي من السجن ، وتابعنا السير بشكل عسكري يحف بنا الجند البريطاني حتى مدخل باب الخان حيث رأينا سيارة عسكرية بانتظارنا فركبناها وسارت بنا مع من ذكرت من الضباط الى طول كرم .

« يتبع »

طول كرم : « سليم عبد الرحمن »

***

مذكرات سجين
٥

سارت بنا السيارة العسكرية يسوقها جندي بريطاني والى جانبه السيد عابدين الحشيمي والسيد حسن محمد · وبجانبي السيد جميل العسلي وجنديان بريطانيان ووجهتنا طولكرم بعد ان امضيت ثلاثة ايام بسجن نابلس كنّ اشد الايام صعوبة عليّ وما كدت اتنفس نسيم الحرية حتى شعرت براحة عظيمة وسرور زائد وكان السيد عابدين ينادمني اثناء الطريق ويؤكد لي ان ليس منه اي تحامل عليّ فذكرت له ولرفقاه الضباط معاملة ذكي افندي ؟؟ القدسي في الايام الثلاث والشدة التي يجريها معي فقهقه مع رفقاه وقال لي اقترح عليك بعد خلاصك من السجن ان تجمع هذه النوادر الغريبة في كتاب تطبعه وتوزعه على الناس وبقي يسامرني الى ان وصلنا سراي طولكرم وبعد دخولها جلست في غرفة الانتظار وقدم لي السيد عابدين فنجالاً من القهوة وسألني عن نوادر ذكي القدسي فذكرتها له بألم ليس فوقه الم فكان يضحك تارة ويرويها لرفقاه تارة اخرى الى ان طلعت الى غرفة حاكم الصلح رفيق افندي ابي غزاله وبينما انا داخل اليها رأيت من اعدوا من الشهود في بهو السراي وكلهم ينظر اليّ نظر الحاقد الباغض المتشفي فلم اعبأ بنظراتهم التي كانت تزيدني قوة وايماناً بأن الحق لابد وان يتغلب على الباطل وبعد دخولي غرفة حاكم الصلح الواقعة الى الجانب الشمالي من السراي رأيت في صدرها رفيق افندي ابي غزاله الذي مثل في هذه القضية النزاهة والحق والعدالة بأجلى مظاهرها فأجلسني الى مقعد هناك وحياني بلطفه المعهود ونظرت الى جانب حضرته الشاب النشيط الذي ذابت تحت انامله مئات الاقلام لكثرة ما كتب من افادات واخذ من شهادات في هذه القضية الهامة ، هذا الفتى هو السيد فالح الطه كاتب ضبط محكمة صلح طولكرم فبعد ان جلست وتناولت القهوة رجوت ذلك القانوني البارع رفيق افندي ان يسمح لي بالكلام فأمر بذلك قبل ان يطلب احد من الشهود فبادرت وامليت على كاتب الجلسة اعتراضي الشديد على وجود مفتش البوليس السيد حسن محمد اثناء التحقيق لما بيني وبين دائرة بوليس لواء السامرة من العداء الذي ذكرته في الجلسات السابقة وبينته في شكاياتي لفخامة المندوب وسائر كبار موظفي حكومة فلسطين وسجلت هذا الاعتراض ورجوت ان كان محتما وجود من يمثل دائرة البوليس فليكن من غير هؤلاء الضباط الذين كانوا يذهبون لعتيل والطيره وقلقيليه لاحضار الشهود وترتيب هذه القضية واذا كان من الضروري وجود حسن افندي فليكن بياني هذا مسجلاً وبعد كتابة ما ذكر طلب حسن افندي مفتش بوليس نابلس بواسطة البوليس الذي كان واقفا امام باب الغرفة احد الشهود فدخل على ما اذكر الشخص المدعو حافظ حمد الله فأدى شهادته التي ذكرنا خلاصتها في اعدادنا السابقة فأظهرت ما بيني وبينه من العداوة وما بين والدي ووالده وما سبق من مجيئه اليّ وتهديده لي في البيت وذكرت شهود دفاع عديدين وبعد ان ناقشته ساعات طويلة وسجلت المناقشة خرج واحضر خادماً عنده يسمى سليمان المحسن الباش جاويش فأدى شهادة خلاصتها اني كلفته في عنبتا على طريق السيارات بأن يدخل ضمن عصابة تشتغل للانتقام ممن يخالف الحركة الوطنية وتستفيد من سلب الناس وان يأخذ نقوداً ولباساً وراتباً معيناً مني وان هذه العصابة ضابطها عارف عبد الرازق بالنيابة عني الى غير ذلك مما لم يعلق بالذاكرة من الافادات التي فندتها واثبت كذب قائلها وبينت سبب شهادة هذا الشخص الذي هو خادم عند حافظ حمد الله وانه اخذ نقوداً على هذه الشهادة وبعد خروجه حان وقت الغداء فانتقلت لغرفة ضابط البوليس محمد افندي الجاعوني وامر السيد عابدين الحشيمي الذي كان مسلماً ادارة هذه القضية وصاحب الشأن فيها بأن يؤتي لي بطعام من بيتي ولما أحضر الاكل وعليه من الفواكه الانواع الكثيرة اكلت بنهم زائد لاسيما بعد ان كنت امضيت ثلاثة ايام في السجن لم اذق فيها غير العدس الرديء مع ثلاثة ارغفة في اربعة وعشرين ساعة وبعد الغداء تابع المحققون التحقيق فأحضروا شهوداً آخرين يدعون مصطفى ابو زيد والطحلاوي وصالح الكفري من قرية عتيل التي كان ذهب اليها السيد عابدين وحسن افندي محمد وعبد اللطيف افندي ابو هنطش قبل سجني بمدة قليلة واخذوا افادات هؤلاء فيها وكل افاداتهم تتلخص في اني كلفتهم للدخول في العصابة وان اسلمهم سلاحاً ونقوداً وان في ذلك فائدة لهم وللبلاد وكانوا يحاولون ان يشملوا الجمعيات الاسلامية المسيحية واللجنة التنفيذية بشهاداتهم غير انهم تركوا الباب مفتوحاً ويظهر ان اليد التي دبرت هؤلاء الشهود كانت تريد بعد انجازها قضيتي اتباعها بأخرى وقد تابعت الدفاع ونقض الشهادات وذكر اسماء شهود الدفاع حتى مغيب الشمس ثم عدنا بالسيارة نفسها مع السيد عابدين وحسن افندي الى نابلس حتى انتهينا لباب السجن فنودي ذكي القدسي فحضر صاحبنا باشاً فرحاً بعودتي فدخلنا من الباب الحديدي الخارجي الى ساحة السجن جميعاً وبعد ان فتشني ذكي المذكور التفتيش الدقيق بالاهتمام الزائد حاول ان يأخذني لغرفتي فوجدها ملأى بالمساجين فقال له السيد عابدين دع سليماً ينام في هذه الساحة لاننا سنعود غداً لطولكرم ولا تضايقه ياذكي أفهمت ؟؟ فأجابه ذكي بالامتثال وقال له (وحياة راسك يابيك انى سأدع سليماً بغاية السرور وسله عن الايام الماضية كيف عاملته بمنتهى اللطف والشرف) ونظر اليّ ذكي مستشهداً وفي نظره معان كثيرة فأجبت على الفوران سعادة ذكي افندي رجل طيب ؟؟ خالص ؟؟ ولطيف جداً ؟؟ يا عابدين بك فتركني وذهب وفارقني على اثر ذهاب السيد عابدين ذكي القدسي ايضاً بعد ان اعطاني التعليمات اللازمة واصدر الاوامر المشددة على من تركه عندي من الجند للحراسة وبعد ان استرحت قليلاً من وعثاء السفر قمت اتمشى في ساحة السجن التي تطل على كل غرف المساجين وكان الجندي الذي يحرسني اثقل عليه النوم فغط فيه غطيطاً شديداً فدرت في ساحة السجن ونظرت الى الشرق فرأيت باب نافذة مفتوحاً وفيه بصيص نور استغربت وجوده لدى ذلك المسجون مع ان كل الغرف يكتنفها الظلام الحالك فاقتربت الهوينا الى باب النافذة لأرى من هذا الشخص الذي يكرمه ذكي القدسي فيضيء له غرفة خاصة ويخصه بكرمه دون سواه فحبست نفسي ونظرت من الشباك فرأيت انساناً نائماً على ما يشبه التخت المنخفض وشاهدت الى جانبه شخصاً آخر نائماً على الارض ويتخلل هذا المنظر الرهيب السكوت العميق وعبثاً حاولت معرفة هذا الرجل الذي يدل ظاهر امره على التفات خاص في هذا المكان الذي لايجد فيه الانسان غير العذاب والشقاء فمن هو هذا الانسان ؟؟

يتبع

طولكرم — سليم عبد الرحمن

* * *

مذكرات سجين

٦

حاولت عبثاً في ذلك الليل البهيم والظلمة الحالكة والمنظر الرهيب ان اعرف النائم في تلك الغرفة فعدت متسللاً الى المكان الذي امر ذكي افندي القدسي ان انام فيه فافترشت الارض والتحفت السماء ولم يكن فوقي وتحتي سوى حرامين كادت رائحتها ان تخنق انفاسي وما انفلج صباح اليوم الثاني حتى استيقظت فرأيت بضعة نفر من الجنود محيطة بساحة السجن وكلها عيون ساهرة لحراستي وبعد قيامي بواجباتي الدينية اقتربت من احد الجنود وقد توسمت فيه خيراً وعلى ما اظن انه من بيت المقدس فهمست في اذنه سائلاً عن الساكن في تلك الغرفة فاندهش لهذا السؤال وتلك الجرأة وقال لي اخفض صوتك وانتظر حتى يذهب بقية الحرس فأعلمك به ولكن حاذر ان تسأل غيري او ان تعلم احداً من الضباط فيحل بنا البلاء الاعظم والمصاب الاكبر وما كاد ينهي كلامه حتى بدأت اتجول في ساحة السجن وذهب الحرس كل الى عمله من مراقبة المساجين وتنفيذ الاوامر المودعة اليهم فعدت لصاحبنا من ساعتي وكررت عليه السؤال والرجاء فقال عجيب ان لا تعرف النائم في هذه الغرفة وهو من اهم رجال عصابتكم المتهمين بها بل قل انه هو القائم باعمالها اذ القى البوليس القبض عليه بعد معركة دامية جرح هذا الشقي بها . فأكدت له اني لم ار في حياتي هذا الرجل ولا اعرفه فقل لي من هو ؟ فقال لي هذا احمد الرديسي الشقي الشهير وهو الذي ارتكب كل الاجرام الجنائية مع بعض اشقياء مثله وألحقت اسماؤكم بعصابته وأؤكد لك ان هذا الشقي غريب الاطوار فبينما هو امام عابدين بك يتكلم بحرية وصراحة ويعطي افادات كثيرة تراه اذا ما خلا بنفسه يبدل ويغير واني استغرب ايها الافندي كيف يسجنوك لاني على ثقة انك مظلوم فلا حول ولاقوة الا بالله . فقلت له سبحان الله وهل بينكم من يعرف الحقيقة فيقولها وكيف عرفت ذلك بربك قل ولا تخف ، فقال لي ارجوك بشرفك ان لا تذكر على لساني شيئاً ولا تذكرني امام محكمة او اي ضابط اونفر من البوليس فيخرب بيتي فأكدت له تأكيداً تاما اني لن اذكره ولن استشهد به واني عاذره لحاجته للخدمة وتشديد آمريه عليه وانما ارجوك ان تفيدني كيف علمت ظلامتي فقال لي انني احد الجند الذين احضروا هذا الشقي (احمد الرديسي) من يافا الى القدس الى نابلس وجمعتني به ضرورة الوظيفة مرات عديدة فأفادني الحقيقة وقال لي ان كل ما وقع من الاجرام والتعديات والتشليح لم يقم به الا انا ومحمد ابو خيزران من قلقيلية وبضعة اشخاص آخرين واني ما رأيت سليماً في كل حياتي ولم يقع بيننا اي معرفة . نعم ان والد سليم عدوي وعدائي للوالد لا يعني عدائي للولد ولكن ماذا اعمل اذا كان عابدين بك هو الذي يملي علي ادخال سليم وغيره لانه عدوه وارى ان الجميع يريدون ضرر سليم وغيره من الناس وانا بدوي بسيط لا اعرف الحكومة والمحاكم والبوليس وها هو عابدين بك يقدم لي الاكل اللذيذ والسجاير الفاخرة ويعدني بالبراءة ان انا قلت ما يريده فمن هذا القول (احمد الرديسي المذكور ايد مارواه لي هذا البوليس في افادته امام حاكم صلح نابلس الشيخ كمال افندي عند المواجهة كما سيأتي بيانه) وغيره مما ارى من المعاملات والاجراآت اعتقدت انك بريء ايها الافندي ولابد ان الله سيظهر الحقيقة فالمحكمة عادلة والحق فوق الجميع فسألته عن اسمه فأبى الاباحة به وابتعد عني مكرراً الحاحه بأن لا اذكره لئلا يقضى على وظيفته وعند مفارقته اياي كانت الشمس توسطت السماء فدخل سعادة مدير السجن ذكي افندي ؟؟ القدسي وصاح بصوت جهوري على الحرس ان احضروا سليماً فبادرت مع نفرين من البوليس الى باب السجن الخارجي فرأيت عابدين بك الخشيمي وحسن افندي محمد وجنديين بريطانيين بسلاحهما ينتظروني فخرجنا من السراي الى حيث السيارة فركبنا جميعاً متجهين لطولكرم فبادرني عابدين بك بقوله اني سأذهب لدمشق عصر هذا اليوم لترتاح من وجودي يا سليم افندي ولتتأكد ان لا دخل لي في قضيتك وان تخوفك مني غلط وسأبلغ سلامك للاصدقاء في دمشق ورجال حزب الاستقلال العربي وشبان النادي اصحابك !! فهل تريد ان ابلغ احداً كلاماً اوسلاماً فقلت له اشكرك وارجو لك سفراً سعيداً ! اولعلها تطول هذه الغيبة ؟ فقال سأغيب شهراً وان شاء الله بعد عودتي اجدك حراً بريئاً وعلى هذا المنوال تابعنا الحديث الى ان وصلنا لطولكرم وبعد الاستراحة قليلاً ذهبنا لغرفة التحقيق فقدمت اعتراضي ايضاً على وجود حسن افندي محمد مفتش بوليس نابلس اثناء التحقيق ونودي الشهود اسعد ابو زيتون ومحمد العبد الجابر واسعد العلي من قرية دير الغصون فأدوا شهادتهم ومضمونها اني كلفتهم للدخول في العصابة وكلفهم معي ايضاً لذلك قاسم افندي وفياض افندي العبد الخضر (من وجوه قرية دير الغصون ومن رجال الحركة الوطنية المخلصين) مقابل نقود وسلاح وثياب عسكرية وان هذا التكليف كان في بيت فياض افندي المومى اليه ففندت شهادة هؤلاء وما بينهم وبيني من العداوة وشدة الخصومة التي بين المذكورين وبين قاسم افندي واخيه فياض افندي وذكرت البينات وشهود الدفاع وما اخذوه من النقود وكيفية وعد قسم منهم بتعيينهم في البوليس اذا اقدموا على هذه الشهادة الى اخر ما جاء في هذا الموضوع من الافادة المحفوظة في المحكمة والتي سيأتي دور نشرها

يتبع

طولكرم سليم عبد الرحمن

***

مذكرات سجين

٧

ونودي على مكي صادق الذي يقوم بوظيفة كاتب تحقيق في البوليس فاستغربت طلبه الفجائي واذا بصاحبنا اعد نفسه ليكون شاهداً عليّ فشهد شهادة لم تكن لتفيد او تضر ولم تزد رجال العدالة الا قناعة بتحامل القائمين بهذه الدعوى ففندت شهادته التي ملخصها اني كلفته ان يبلغ ابن عمي عفيف الحاج ابراهيم بأن يدبر شهود عنبتا وذنابه وبعد ان خرج ذهبنا للغداء وبعد الظهر تابعنا سماع افادات الاشخاص الذين ذكرتهم من دير الغصون حتى المساء وكان يوماً شديد القيظ فبعد غياب الشمس سلمني حسن افندي محمود الى جاويش المركز امين افندي طهبوب فأدخلني هذا الى غرفة السجن القريبة وحدي فما وطئتها رجلاي حتى اقفلت الابواب ووقف الحرس ببنادقه وسلاحه الابيض يغدو في باب هذه الغرفة ملتفتاً نحوي في كل ساعة وما استقر بي الجلوس على ارض تلك الغرفة الرهيبة حتى رأيت نفسي في اتون من الحر الشديد وجيوش القارص الصامت منها والصائح تهاجمني والبق برائحته الكريهة والقمل والبراغيث بجيوشها الجراره تسرع نحوي فتعوذت من الحياة حياة العبودية والاسر وحياة الظلم والمظالم وعبثاً حاولت النوم بعد ان قلعت ثيابي كلها فلم تغمض عيني في تلك الليلة بل امضيتها واقفاً على قدميّ اغدو بين اربعة جدران ضيقة يجاورها اصطبل الخيل من الشمال وفيما انا على هذه الحال المؤلمة اذ تغير الجندي الذي يحرسني فجأة ولما اقترب مني الغفير الجديد تمعنته فاذا هو بوليس عرفته من قبل يدعى احمد سليمان الحجاوي من نابلس فبادرني بالتحية ولم يكد يقترب من الباب الحديدي حتى طلب اليّ ان اقترب منه ففعلت فقال لي قبح الله هذه الحالة التعيسة اقسم بالله سجنك ظلم واستبداد واقول لك ان الناس في الخارج كلهم متأثرون على وجودك في الحبس واني اكاد اختنق حزناً عليك لاني احبك يا ابو العبد !! انت الذي تدافع عن وطننا موش عيب نسجن ظلماً كلنا فداك يا ابو العبد ! ! شوف بس خبرني ان كان يلزم ان ابلغ احداً من المساجين او لاحد في السوق كعفيف افندي او احمد افندي الغضبان صديقك الذي يذكرك في كل ليلة . انت لا تقول عني بوليس والله بفديك بروحي بس احكي لي عن كل شيءٌ !! وقل لي ما تريد وانا حاضر لخدمتك !! فهززت رأسي وقلت بنفسي سبحان الله حتى هذا الانسان المسكين يريد ان يتقرب من آمريه بحديث ينقله على لساني او كلمة يتخطفها مني ليكون شاهداً فينال حظوة لدى رؤسائه في الغرابة هذه الاخلاق فاستلفت نظره سكوتي القليل وقال لي لم تسكت او هل تظنني جاسوساً يا ابو العبد ؟! لا تخف ابداً بالشرف فقلت له اسمع . الا تدري انه ممنوع الحديث مع المساجين وعلى الاخص ليلاً فقال نعم . فاجبته لم اذن انت تخالف القانون ؟ ! والامر فتحادثني فاجابني بابتسامة صفراء اني اود خدمتك فقلت له اذهب والا ترى وتسمع مالا يسرك فاضطر للشكاية عليك الى آمريك فابعد عني ولا تعد اليّ فطأطأ رأسه وابتعد بخجل عظيم وما ارتفعت شمس اليوم الثاني حتى طُلبت لاتمام التحقيق فذهبت لغرفة حاكم الصلح واخذ في سماع الشهود وبعد اتمام سماع بضعة شهادات وكان ذلك قبل عيد الاضحى بيوم فقط خرجت وبرفقتي حسن افندي محمد مفتش بوليس نابلس ووديع افندي مسعد مفتش بوليس طولكرم وركبنا سيارة لتذهب الى نابلس عن طريق المحطة فسارت بنا والى جانب سائقها احمد الحجاوي ايضاً فبعد ان اخترقت بنا شارع طولكرم العام سارت بنا تخب الارض خباً ووجهتها المحطة

يتبع

طولكرم — سليم عبد الرحمن

* * *

مذكرات سجين
٨

واخترقت سيارتنا الشارع العام في طولكرم مطلة على سهل شارون الجميل فما هي الا بضع دقائق حتى وصلنا المحطة فرأيت جماعة من الاصدقاء عائدين للبلدة فأعادهم الشوق لرؤيا اخيهم السجين فما وطئت قدماي ارض المحطة تحف بي الجنود ومن ذكرت من الضباط اهتزت اعصابي شوقاً لمنظر اخواني الذين حالت بيني وبين الاقتراب منهم ومصافحتهم حالتي الراهنة

اذكر انه كان بين اولئك الاصدقاء الاعزاء سعيد افندي الخليل الذي كان عائداً من دمشق حديثاً ولم يكن يوم القاء القبض عليَّ في طولكرم وعبثاً حاولت الاقتراب منهم او محادثتهم وكان القطار على اهبة السفر الى نابلس فجلسنا في احدي غرف القطار ودنا منا بائع كازوز على المحطة يدعى يوسف طافش وهو شاب متحمس وبعد الاستئذان قدم لي كازوزاً وحياني بابتسامات ونظرات عرفت منها ماتحمله القلوب نحو قضيتي واقترب من مجلسي فتية احرار حاولوا ان يصافحوني فمنعوا ولم تطل تلك الحادثة وذلك الموقف المؤثر حتى اذن القطار بالرحيل وتحرك بنا الى نابلس فوصلناها وسرنا تواً الى السجن فاستلمني زكي افندي! كالعادة بعد التفتيش وقضينا تلك الليلة (ليلة العيد) بتذكارات عديدة وافكار مختلفة وساورني الارق هذه الليلة فعبثاً حاولت ان اسكن من ثائرة نفسي المقطر به وهاجت بي العاطفة وذكرتني ليلة العيد بالآم وآمال وبأهل واصدقاء وبلاد ووطن فوقفت لساعتي في منتصف ذلك الليل البهيم والسكون مخيم في اعماق سجني الواسع الارجاء فترنمت بصوت خافت وما شعرت بألم النفس وثورة الفؤاد مثل شعوري لوحشة تلك الليلة . قضيت ساعات كأنها اشهر وقبيل الفجر شعرت بتعب في جسمي وانهارت قواي فطافت بي سنة من النوم وغرقت في بحر اللانهاية وسبحت في لجة احلام مزعجة فما اضاء النور غرفتي وماانبثق فجر ذلك اليوم العصيب حتى سمعت صوتاً جهورياً يوقظني فانتبهت على الصوت مسرعاً وبادرت صاحبه بالتحية والاحترام لان زكي افندي مدير السجن ؟! لايخالف . وكانت اصوات التهليل والتكبير من اعالي منارات جوامع نابلس تهز الارجاء ويحس المرء بخشوع لا مزيد عليه من تلك الاصوات الشجية التي تصيح في ذلك الفضاء الله اكبر الله اكبر ولله الحمد فبينما تلك الاصوات مرتفعة وبينما ثلاثمائة وخمسون مليوناً من المسلمين على وجه الكرة الارضية يحمدون الله ويشكرونه ويعايدون بعضهم بعضاً كان زكي افندي !!! القدسي يصيح بي ان اقترب منه ففعلت ظناً ان زكي اتى ليعايدني في صباح ذلك اليوم فهرولت مسرعاً نحوه وفي نفسي ما فيها من الفرح اعطف زكي عليَّ فلما دنوت منه قلت له ماذا تأمر يا ابا داود ؟ قال لي المسئلة بسيطة جداً وها ان الشمس لم تطلع بعد فبنصف ساعة تنهي ما اكلفك عمله فقلت له ما ذا تريد ان اعمل في يوم العيد وقبل بزوغ شمسه؟ قال حكاية بسيطة جداً خذ هذه المكنسه وكنس الغرفة التي انت بها ونضفها واغسلها بالماء واخرج السطل وكل ذلك لا يستغرق اكثر من ساعة او ساعتين (لان الغرفة التي انا بها فسيحة جداً) فقلت له هل جننت يا ذكي وماذا تريد ؟ وهل تتصور ان اقوم بالتكنيس والتنظيف وانا لا ازال موقوفاً والقانون يمنع تشغيل الموقوف ؟!!

ثم الا تسمع اصوات التكبير والتهليل؟؟ كفاك ياذكي عتواً وظلماً ويجب ان تعلم اني بعد اليوم لن اصبر على مثل هذه الاعمال التي تجريها معي وكلها تخالف القانون ويجب ان تفهم انني في يوم عيد ولا يوجد اي قوة اوسطوة تجبران اي انسان حتى لو كان ذا دين من احط اديان العالم ان يشتغل في يوم عيده فكفى . ولا تريني وجهك وابتعد عني حالاً . فصاح بي هل انك عاصٍ ؟ اوهل تخالف او امري ؟؟ انتظر قليلاً فسأريك اشد العذاب وسأجازيك جزاءً صارماً انتظر !! . فقلت له ابتعد ايها المخلوق الغريب ولاتتردد بالقول فدونك وآمريك اذهب وابلغهم امتناعي عن قبول الاحتقار والظلم وسأشكوك للمحلات التي تنفذ فيها العدالة . فغاب وبعد ساعة من الزمن عاد وبصحبته سرب من لابسي القلابق السوداء ففتح باب غرفتي الحديدي ودخل منه شخص حليق اللحية والشوارب تمعنت بوجهه فعرفته بأنه انكليزي لاول نظرة فقلت في نفسي لابد لي من شكاية ذكي اليه ليقاصصه بما يستحق ، عرفت هذا الضابط فيما بعد واسمه المستر لامب ، والى جانبه الضابط ابراهيم افندي البيطار ومعهما جاويش ونفران فبادرني المستر لامب بالتحية وقال لي الاتهتم بامر النظافة؟ اولم تتعلم حفظ الصحة في المدارس التي درست بها ؟؟ فلم يكد يتم كلامه حتى بادرته بوابل من الاجوبة وابنت له ما يجريه معي ذكي القدسي وكيف انه يكلفني في هذا اليوم الذي يقدسه المسلمون جميعاً بأن اكنس واقوم بأعمال شائنة وبدأت اذكر له اعمال ذكي بصوت متهدج وكلام مؤثر فلم يكد يسمع كلامي حتى اسرع مهرولاً نحو الباب وخرج بدون ان يقول كلمة وأغلقت الابواب عليَّ ولم اعد انظر وجه ذكي في تلك الساعات التي هاجتني كثيراً حتى وقت الظهر واذا بذكي القدسي يتقدم اليَّ بوجه تعلوه الابتسامة الصفراوية والسرور المصطنع فقال لي لقد احضرت لك طعاماً لذيذاً واريد ان اريحك من اكل العدس فقلت له لا اريد حتى ولو كان الخروج من هذا السجن عن يدك فعاد وبدأ يلاطفني ويهدئ اضطرابي الشديد واخيراً قال لي ان المحامي محمد افندي كنعان يقدم لك طعام ثلاثة ايام العيد وقد اخذ لك اجازة بذلك وسيحضر طعام الغذاء بعد قليل فعدت لغرفتي وتذكرت الاستاذ المحامي كنعان وشكرت له من كل قلبي تلك العاطفة الشريفة وذلك الاقدام الكبير وذكرتني كلمات ذكي القدسي هذه بأشياء سأسردها فيما بعد

يتبع

طولكرم — سليم عبد الرحمن

مذكرات سجين

٩

ولما ازف وقت الظهر صاح ذكي القدسي منادياً اياي من الباب ولما اقتربت منه قدم لي طعاماً مختلف الالوان مع كثير من الفواكه المتنوعة ارسلها اليَّ المحامي البارع محمد افندي كنعان فتناولتها بسرور لا يوصف وشكرت للمرسل همته واكلت الطعام الذي حرمته اياماً عديدة بنهم لا مزيد عليه لأنني في كل ايام سجني لم اتناول من الطعام الا العدس السيئ والخبز فقط . وبعد ان انتهيت من طعامي عاد اليَّ ذكي يود مداعبتي وكأنه شعر بقساوة عمله وفظاعته واظن ان شكايتي اياه للمستر لامب كان لها بعض التأثير .

وقد امضيت ايام العيد الثلاثة على هذا المنوال ، ولكنني ظهر اليوم الاخير حرمت فجأة من الطعام المعتاد فكان محرمي من عمل محمد افندي كنعان شديداً وهكذا اضطررت ان استجلب غذاء ذلك النهار من السوق بعد شكايات واسترحامات قدمت لذكي القدسي .

وفي مساء ذات يوم بعد هذه المسألة بمدة قصيرة جاءني ذكي وقال لي عليك ان تتهيأ قبل شمس نهار الغد وتستعد لأن تذهب الى مكان آخر غير الذي انت فيه ، ورغم تشديدي في السؤال عن المحل الذي يودون ان يرسلوني اليه فان ذكي المذكور رفض اجابتي فخطر بفكري انهم يريدون ان يرسلوني الى سجن عكا الذي أُرسل اليه كل الاشخاص المتهمين معي في الجنايات الثمانية التي ارتكبت والتي سيأتي بيانها . فقضيت ليل ذلك اليوم بهواجس مختلفة وافكار متضاربة واستيقظت صباح اليوم التالي مبكراً على صوت ذكي القدسي الجهوري وبعد ان ارتديت ثيابي اخرجني من بين الابواب الحديدية والسجون الى دار حكومة نابلس فرأيت السيد خير الدين بسيسو مساعد قومندان بوليس لواء السامره والى جانبه حسن افندي محمد مفتش بوليسها بانتظاري ورأيت معهما جنديين بريطانيين بسلاحهما . فبعد ان تبادلنا التحية جميعاً سرنا بشكل عسكري الى السوق ثم الى حيث تنتظرنا السيارة العسكرية فركبناها وسارت بنا تقطع السهول والجبال بسرعة زائدة فسألت خير الدين بك عن وجهة سيرنا فقال انا سنذهب الى طولكرم لاكمال التحقيق فتابعنا السير ولم يكن يجري بيننا من الاحاديث الا الشيء الضروري مع بعض كلمات متقطعة وكنت مسروراً بسفري هذا واستنشاقي الهواء الطلق وبعد نصف ساعة من الزمن وصلنا سراي طولكرم فرأيت امامها الكثيرين من ابناء الوطن قادمين لمراجعة الحكومة في شؤونهم واعمالهم فحيوني وحييتهم بالاشارات المتبادلة والابتسامات الخفيفة ودخلنا غرفة الاستراحة فقدم لي خير الدين بك بضعة فناجيل من القهوة وبعد قليل طُلبت لغرفة حاكم الصلح القانوني البارع رفيق افندي ابي غزاله الذي كان حضر في ذلك الوقت واجلسني وسلم عليَّ بلطف وبشاشة وبعد قليل طلب حسن افندي محمد بصفته وكيلاً عن الحق العام بضعة شهود فاعترضت على وجود حضرته كما سبق ذلك وطلبت تسجيل الاعتراض ثم دخل علينا شخص شاحب اللون اصفر شعر الشاربين والحاجبين قصير القامة لا اذكر اني رأيته قبل تلك الساعة وبدأ يلقي افادته التي تلخص فيما نأتي عليه بعد .

يتبع

طولكرم — سليم عبد الرحمن

***

مذكرات سجين

١٠

قال هذا الشاهد الذي يدعى سليمان الباشجاويش او سليمان المحسن من قرية عنبتا بأنني كلفته الدخول في العصابة الوطنية مقابل راتب شهري يتقاضاه مني وانه اذا دخلها سينال ارباحاً طائلة وان القصد من هذه العصابة النهب والسلب وخدمة الوطن وانه امتنع عن ذلك خوفاً من الحكومة فناقشته في اقواله وتضاربها فكان يجيب اجوبة مضطربة مختلفة وعند ما كان يشعر بأن افادته الكاذبة تكاد تظهر كان يحملق فيَّ بوجهه الشاحب الذي يعلوه الاصفرار وبعد ان بينت كذب مدعاه ودحضت اقواله خرج ونودي على بضعة شهود آخرين لم تخرج افاداتهم عن افادة الذي سبقهم وكلها كانت ترمي الى غاية ابعد من الحكم عليَّ وحدي فأجبت على كل منها بما يظهر كذب تلك الافادات وترتيبها واسباب الاقدام على تزويرها مؤيداً اقوالي بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة وبقينا على مثل هذا الحال الى ان آذنت الشمس بالغروب فخرجنا من غرفة التحقيق وآثار التعب بادية علينا وسرنا تواً الى باب السراي حيث كانت سيارة الجند البريطاني تنتظرنا فعدت بها يحرسني بضعة نفر من الجنود الانكليزية والبوليس الفلسطيني وعلى رأسهم مفتش البوليس حسن افندي محمد فسارت بنا السيارة وهي من الجنس القديم وكان سيرها بطيئاً بصوت مزعج متجهة نحو نابلس لنعود الى ذكي القدسي فما قطعنا خمساً او ستاً من الكيلومترات حتى تعطلت السيارة ونزلنا على الطريق ننتظر اصلاحها الذي كان يقوم به سائقها الانكليزي فمضت ساعات وعبثاً كان انتظارنا فأخذ منا الجوع مأخذه وانهكنا تعب ذلك النهار وكان يهز كل اوتار ادمغتنا ضبع صغير كان أرسل معنا في السيارة هدية من احد القرويين لمساعد قومندان البوليس خير الدين بك بسيسو فكان يصيح بصوت فظيع آلم كل من سمعه وبقينا على قارعة الطريق الى منتصف الليل ومر بنا المحامي محمد افندي كنعان فحاول ان يصافحني فمنعه حسن افندي بشدة لم يكن الواجب الادبي ليقبلها، وبعد عناء وتعب كثيرين احضرت سيارة انكليزية اخرى من نابلس لتساعد الاولى وعبثاً حاولت ذلك، فنقلنا اليها وسرنا الى ان وصلنا الشويكة فأوقف حسن افندي محمد مفتش البوليس السيارة الانكليزية التي نقلتنا تحت نزل السامرة وصعد اليه وما كنت اظن ان يبقيني كل تلك المدة التي انتظرته يحيط بي الجواسيس من كل مكان عدا الجند المحافظين وبقيت امام القهوة وتحت النزل وعلى تلك الحال اكثر من ساعة وحسن افندي يتمتع براحته وطمأنينته في النزل ! ! مع بعض زملائه وبعد ان امضينا تلك المدة نزل حسن افندي وتابعنا السير الى ان وصلنا باب السجن، فاستلمني الحارس الذي على الباب الخارجي وافهمني حسن ان اتهيأ لليوم الثاني وان استيقظ مبكراً وودعني فدخلت الى ساحة السجن ولحسن الحظ لم ار ذكي افندي القدسي بلطفه؟ وبشاشته المعهودة ! ! ! وليس ذكي افندي موجوداً في السجن فسررت من اعماق قلبي وتابعت السير في ساحة السجن الى ان وصلت مكان الحارس فأيقظته واسرع بي الى غرفتي الخاصة وادخلني بسرعة واغلق عليَّ الباب، فدخلت تحت جنح ذلك الظلام الحالك وفي تلك الساعة المتأخرة من الليل الى بهو واسع تملأه الرطوبة والرهبة وفيما انا سائر لا ارى ما حولي من شدة الظلام واذا بي وقعت على وجهي بعد ان اصطدمت بجسم كبير يتحرك فصحت وصاح من مررت على جسمه واذا هو انسان! فدهشت من وجوده عندي وبادرت باهتمام وسألته : من انت ؟ فقال لي وانت من انت ؟ فقلت سجين مظلوم فاجابني وانا سجين محكوم فاقتربنا من بعضنا بعد ان خامرنا الشك والارتياب فرأيت يدي زميلي الجديد مصفدتين بالحديد فسألته عن اسمه فقال لي حافظ النجيب من قرية سلفيت المحكوم بالاعدام غيابياً وفي هذا اليوم قبضوا عليَّ واحضروني الى هذا المكان .

يتبع

طولكرم سليم عبد الرحمن

***

مذكرات سجين

١٢

قال الشاهد محمد ابو قطوسه : « بينما كنت عائداً من يافا انا ورفيقي محمود الخليل العمر من قرية دير الغصون سمعنا بجنوب قلقيلية عدة طلقات نارية وكان الوقت في منتصف الليل تقريباً وشاهدنا للشرق عدة اشخاص مجتمعين على الخط الحديدي فأسرعنا بالسير ولم نكد نخطو بضع خطوات حتى رأينا فرساناً يعدون وراءنا وصاحوا بنا ان نقف ،فوقفنا ، ولما اقتربوا منا عرفت منهم قاسم العبد الخفر واخاه فياضاً وسليم عبد الرحمن وهم مرتدون ثياباً عسكرية وعلى رؤوسهم قلابق واتذكر ايضاً ان فرس قاسم خضراء فلما عرفونا طلبوا منا ان نذهب معهم ليحملوا رفيقاً لهم قطعوا رأسه بعد ان هاجموا (الترزينه) بقصد نهبها فأطلق عليهم ركابها الرصاص فقتل احد الذين معهم ، فقطعوا رأسه وطلبوا منا ان نحمل جثته على ركائبنا لنلقيها في احدى كهوف الجبال فاعتذرت لهم انا ورفيقي الذي كان مبتعداً عني قليلاً ولحقني بأثناء الوقوف والحديث مع من ذكرت، فلما لم يجدوا مني قبولاً اخذوا عليّ يميناً ان لا ابوح بالسر وان لا اذكر امام احد ما اني رأيتهم وهددوني بالقتل ان انا تكلمت ما شاهدته منهم وكانوا جميعهم مدججين بالسلاح ، وابقيت هذه الحادثة طي الكتمان لخوفي من سطوتهم . اما الآن بعد ان اهتمت الحكومة والقت القبض على سليم عبد الرحمن وسجنته هو ورفقاه بادرت بأعطاء هذه الافادة خدمة للدولة والحقيقة» .

هذا مجمل ما بقي في الذهن من افادة هذا الشاهد الذي كانت افادته مثال الكذب والتزوير والنفاق الظاهر

فبعد اتمام شهادته سأله حسن افندي محمد مفتش بوليس نابلس عن موقع الترزينه وعما اذا كانت في ارض السهل او ارض الجبل وعما اذا كانت قريبة من الطريق او بعيدة فلم تكن اجوبته على تلك الاسئلة الا لتزيد كذبه ظهوراً وتزويره بياناً لان كل ما ذكره هذا الشاهد كان منافياً للحقيقة فقال ان حادثة الترزينة وقعت جنوب قلقيلة مع انها جرت على بعد مسافة اربع او خمس كيلومترات من شمال قلقيلية وقال ان الخط الحديدي يمر للجنوب الشرقي من قلقيلية بالضبط والانكى من كل ذلك ان الذين اعتدوا على الترزينة واطلقوا الرصاص عليها فقتلوا وقتل منهم عرفوا وصدرت احكام المحكمة المركزية بحقهم قبل ان يأبى هذا الشاهد ويؤدي شهادته بنحو سنة .

وبعد ان اتم حسن افندي محمد اسئلته بدأت انا بالكلام فطلبت توقيف الشاهد لانه كاذب ومزوز وذلك ظاهر عليه من اقواله وذكره الحوادث التي لا يمكن لانسان ان يشاهدها فلا يعرفها وبينت ان حادث الترزينة وقع في الجنوب الغربي من الطيبة وفي شمالي قلقيلية وان الخط الحديدي يبعد عن الطريق المعبدة مسافة لا تمكن من رؤية ما يجري على الخط لا سيما في الليل كما ذكر واظهرت كل النقاط المخالفة للحقيقة وكان الى جانبي كل من قاسم افندي العبد الخفر وفياض افندي اخاه فبعد ان بينت مما يثبت كذب الشاهد المذكور بينا هما ايضاً ما حدا بالشاهد لهذه الافادة وانه لم يكن المقصود بهذه الشهادة سليم عبد الرحمن بل هما المقصودان لما بينهما وبين الشاهد المذكور من العداوة وبينا كيفية ترتيب هذه الشهادة والدافع لاختلاقها وكان الشاهد ابو قطوسه يحاول ان يجادلها بعنف الا ان حضرة حاكم الصلح رفيق افندي ابو غزاله كان يمنعه ، واخيراً تعمق رفيق افندي بسؤال الشاهد حتى ظهر كذب شهادته عياناً وبعد ان مضى ثلاث ساعات على سماع الشهادة ودحضها حان وقت الغداء فوضع الشاهد المذكور في غرفة التحقيق وانتقلنا نحن الى غرفة الاستراحة ، وبعد ان تناولنا الغداء نودي على الشاهد الثاني المدعو محمود الخليل العمر من دير الغصون . فبعد ان اقسم اليمين بدأ باعطاء شهادته .

يتبع

طولكرم سليم عبد الرحمن

***

مذكرات سجين

١٣

في جلسة بعد الظهر دخل الشاهد خليل محمود العمر من قرية دير الغصون حيث كنا نحن. فتمعنت في وجهه لاعرف من صاحب هذا الاسم الذي لم اسمعه في حياتي فاذا هو في العقد الخامس من العمر نحيف القامة حليق الذقن ابيض الشاربين تدل ملامحه وتجعدات جبهته البادية على انه اجتاز اياماً عصيبة ، فبعد ان اقسم اليمين جلس الى جانب رفيقيّ المتهمين قاسم افندي وفياض افندي العبد الخضر من اشراف قضاء طول كرم فسأله حضرة حاكم الصلح عما عنده فقال ، على ما اذكر ، كنت انا ورفيقي ابو قطوسه في يافا وخرجنا منها آخر النهار وعند وصولنا الى جنوب قلقيليه تأخرت قليلاً عن رفيقي المذكور لقضاء حاجة فسمعت عيارات نارية عديدة وبعدها بقليل رأيت اشباحاً تقترب منه ، وبما ان الوقت كان ليلاً والظلام شديد الحلك لم اتمكن من معرفة الفرسان الذين كانوا يدنون من رفيقي ولكني بعد ان اقتربت منهم عرفت قاسم وفياض العبد الخضر ومعهما سليم عبد الرحمن وكانوا يحاولون اقناع رفيقي ليذهب معهم ويحمل جثة الذي قتل بحادثة الدرزينة ولما وصلت اليهم كلفوني انا ايضاً ان اساعدهم على اخفاء آثار الجريمة فلم اقبل وعلى ذلك اكتفوا بأن اخذوا عليَّ يميناً معظماً بأن اكتم السر وذلك بعد ان يئسوا من حملي وحمل زميلي على اخفاء جثة الشخص المقتول . وبعد ان تركناهم اسرعنا الخطى حتى وصلنا الى قريتنا دير الغصون ظهر اليوم الثاني وقد ابقيت الامر مكتوماً الى ان سجن سليم عبد الرحمن ورأيت دائرة البوليس تفتش على من عندهم معلومات بخصوص هذه الحادثة وغيرها فتقدمت اليها بافادتي هذه

وبعد ان اتم هذا الشاهد افادته بدأ حسن افندي محمد مفتش البوليس الذي كان جالساً الى جانبي بالقاء الاسئلة على الشاهد ليزيد موقع الحادثة ايضاحاً وليستفسر منه عن عدة نقاط وبعده كلفني حاكم الصلح بالقاء الاسئلة على الشاهد وفقاً القانون الشكاية والاخبار الذي كان قد صدر حديثاً فبدأت بتوجيه الاسئلة اليه عن مكان حادثة الدرزينة التي وقعت، كما بينا في العدد السابق شمالي قلقيلية وبمكان بعيد عنها والى الغرب لا الى الشرق ، فأحرجت مركزه واظهرت كذب افادته من نفس افادته وما تخللها كما جرى لرفيقه الشاهد الذي اتى قبله واظهرت عملياً كذبه وتكلم بعدي قاسم افندي وفياض افندي عما حدا بهذا الشاهد لاختلاق هذه الشهادة وعما بينهما وبينه من العداوة وفيما كانا يناقشانه وحاكم الصلح وكاتبه يشتغلان بضبط الافادات وجه هذا الشاهد اليهما كلمات شتم وتحقير فضبطها حاكم الصلح فوراً لانها تظهر مقدار ما في قلبه من الحقد والضغينة عليهما . وما انتهى الرجل من شهادته حتى فارقت الشمس بأنوارها الجميلة سماء طول كرم فخرجنا وسار بي حسن افندي مفتش البوليس الى باب دار الحكومة حيث ركبنا السيارة العسكرية التي كانت بانتظارنا فسارت بنا الى نابلس فحللنا ، حسب العادة ، ضيوفاً كراماً ؟! بالسجن عند ذكي افندي ! القدسي ، وفي صباح اليوم التالي استيقظت مبكراً وهرولت الى الباب مسرعاً واذا خير الدين بك بسيسو وحسن افندي محمد ومعهما بضعة جنود بريطانيين ينتظروننا وكان الى جانبي في هذه المرة ذكي القدسي، ذكي الذي احب ذاته حباً يكاد ان يكون عشقاً ؟؟ !! ... وما ذلك الا لحسن معاملته ! وكرم خلقه ! ولطفه ! ولين عريكته ! وفوق كل ذلك ، لحسن منظره ؟! وجمال سحنته ؟! .. فسألته ونحن في الطريق الى اين يا ذكي .. افندي ؟! فقال اني رفيقك اليوم ، او لا تريد ان اؤانسك يا ابا العبد ؟ فقلت اوتظن ذلك يا ابا داود ... وانت الرجل المعتبر ! الخفيف ! اللطيف! الظريف الانيس !! ... وقطعنا سوق التجار في نابلس ووصلنا الى سيارتنا المعتادة التي كان يقودها دائماً جندي بريطاني فجلست في حوضها الخلفي وجلس الى جانبي ذكي القدسي وبضعة جنود بريطانيين انست منهم لطفاً زائداً واخلاقاً كريمة لن انساها ، ولو أتيح لي ان اعرف اليوم اسماءهم لشكرتهم شكراً جزيلاً على الكلمات المشجعة التي كانوا يسرونها اليّ باللغة الافرنسية لئلا يفهم ذكي القدسي مآلها فيشكوهم الى آمرهم

تابعنا السير هذه المرة وذكي القدسي يرافقنا حتى وصلنا الى طول كرم فدخلنا السراي وبعد قليل دخلنا غرفة التحقيق وما ان مكثنا قليلاً حتى صاح حسن افندي محمد مفتش البوليس على ذكي القدسي فدخل (بسلامته !)واذا به شاهد ضدي ولقد كان عجبي شديداً لهذه الشهادة والشاهد اللذين لم افهم كنههما وعليه أريد ان اصف للقراء هذا الشاهد الجديد ليعرفوه كما هو ، ومن ثم آتي على شهادته .

يتبع

طولكرم سليم عبد الرحمن

مذكرات سجين

١٤

الشاهد ذكي القدسي قصير القامة عريض المنكبين نوعاً ما اصفر شعر الرأس والشار بين اخضر العينين انقر الوجه في العقد الرابع من عمره يعلو وجهه الغضب والعبوسة ، امي لا يقرأ ولا يكتب ، اصله من خليل الرحمن ، كان في ايام الترك حكم عليه ثلاث سنين وفر الى مصر على ما رواه لي بعض اهل البلدة ، وعاد بعد الاحتلال فدخل سلك البوليس وترفع الى ان نال رتبة جاويش و بسبب شكايات اهل بلدة خليل الرحمن انزل الى نفر ونقل الى نابلس وهو الآن مأمور على سجن نابلس وقد وضعوا له شريطة على كتفه الايسر فأصبح معاون اونباشي و يمتاز عن رفاقه الجنود بصرف راتبه فلا يضيع منه الا القليل .

دخل هذا الشاهد الجندي الذي عهد اليه امر المحافظة عليّ والنظر في شؤوني ؟! فأخذ التحية العسكرية ووجه الي نظراته المعهودة المملوءة غضباً و بدأ يسرد افادته امام حاكم الصلح وحسن افندي محمد مفتش البوليس وهي تتلخص على ما اظهر بأن ذكي القدسي المذكور بينما كان يوماً داخلاً للسجن بعد الغروب اذ سمعني اتحادث من شباك غرفتي الذي يعلو عن الارض مقدار متر ونصف مع احمد الرديسي الشقي الشهير [الذي اتخذ شاهد ملك في قضيتي] واني كنتَ اوصيه على الافادة ، واحرض علي الحمزة على كيفية الشهادة .

وكان هذا الشاهد ذكي كلما قال كلمة ينظر اليّ بعين غاضبة كأنه يريد التشفي مني . وبعد ان انتهى من سرد افادته بدأت بالكلام على ما كان ذكي المذكور يجريه معي من القساوة والشدة والمعاملة غير القانونية كتكليفه اياي صباح يوم العيد بأعمال منافية لكل عاطفة انسانية مثل تشغيلي بكنس غرفة السجن وغير ذلك من الامور التي حظرها القانون على الموقوفين ، وكيف اني شكوته لمفتش السجن وبينت مقدار تأثير ضباطه عليه وما بيني وبين اولئك الضباط وتكلمت عن عدم صحة افادته وان غرضه من هذه الافادة ارضاء سيده وآمره خصمي الشهير ، وفيما انا ابين اعمال ذكي القدسي وشدته وقسوته امام قاضي التحقيق على مسمع منه كان هو يحرق الارم علي و يعلو وجهه الاصفرار تارةً والغضب اخرى حتى كاد ان ينشق من الغيظ ، وقد اثر كلامي على السامعين فبدأت علائم الاستياء تظهر على وجوههم وما انتهينا من اعطاء الافادة حتى كان وقت الظهر فأخذت لغرفة الاستراحة واحضر لي الطعام من البيت ، وبينما انا وحدي في الغرفة اذ دخل علي ذكي يؤنبني على ما بينته من اعماله ويهددني فقلت له اياك والخروج عن القانون فأي عمل تعمله معي اشكوه لآمريك .

فخرج وهو مستاء اشد الاستياء ، فصادفته مائدة الطعام فبدأ بحجة تفتيشها يضع اصابع يديه تارة في الحلوى واخرى في الطعام وثانية في الخبز حتى جعل طعم الطعام ذلك اليوم مزيجاً من حلو وحامض ومالح فلم اظهر اي اكتراث لعمله الغريب وبعد الظهر أحضر بقية الشهود الذين لا تخرج شهاداتهم عن مثيلاتها .

وفي مساء ذلك اليوم عدنا الى نابلس وكان بجانبي ذكي القدسي رغم بياناتي وشكاياتي العديدة منه لضباطه فادخلني السجن واخذ مني حرامين من الخمسة حرامات التي كانت عندي قاصداً بذلك ان لا يترك لديّ ما اضعه تحت رأسي فلم أعبأ بهذا ابداً ، وبعد يومين على هذه الافاده طلبت لغرفة الضباط فخرجت اليها بلحيتي الطويلة لان ذكي القدسي كان يأبى عليّ الحلاقة والنظافة بقصد تعذيبي والتلذذ برؤياي على تلك الحالة فرأيت في الغرفة المذكورة المحاميين القديرين عثمان افندى بشناق وحسني افندي العنبتاوي فأخذا وكالتي [وكان على اثر توقيفي حضر لطولكرم المحامي البارع عوني بك عبد الهادي فقابلني بسجن طولكرم واخذ وكالتي وارتاح ضميري لان الحق لا بد وان يظهر بمهارة ومقدرة انصاره المحامين] وفهمت منهما ان المساعي مبذولة لاطلاق سراحي بالكفالة وطلبت اليهما ان يطلبا اخذ افادة كثير من المسجونين والمتهمين كشهود دفاع الي وكنت سميت علي الحمزة واحمد الرديسي ليبينا ما عندهما ولم يمضِ مدة حتى طلبت لطولكرم فذهبت كالمعتاد محفوظاً واستحضر الشاهد علي الحمزه الى غرفة التحقيق بعد ان كانت اخذت افادات شهود الدفاع التي اثبتت العداوة بيني وبين من شهد ضدي ومن تسبب لاتهامي بهذه التهمة . فدخل علي الحمزه وهو احد الذين كانوا وضعوا بالسجن لخدمة احمد الرديسي الشهير وبعد ان اقسم اليمين قال :

يتبع

طولكرم — سليم عبد الرحمن

***

مذكرات سجين

١٥

قال شاهد الدفاع علي الحمزه :

« انني منذ مدة وانا موقوف في سجن نابلس وبعد ان احضر احمد الرديسي (الشقي الشهير) اخذت لغرفته لاجل ان اقوم بخدمته وقضاء حوائجه ومنذ برهة يسيرة حضر لعندنا داخل السجن وبالغرفة التي انا واحمد الرديسي فيها عابدين بك الحشيمي مساعد قومندان البوليس ومعه محمد خيزران (احد افراد العصابة الذي اعتبر شاهد ملك) وبعد ان دخلا علينا قدم عابدين بك علباً من التبغ وكبريتاً الى احمد الرديسي وخياراً وبعض فواكه هدية ، وبعد ان جلسا قليلاً قال لي عابد ين بك: الا تعرف محمد خيزران يا علي؟ فقلت له لا اعرفه وبعدمدة اقترب مني ابوخيزران وقال لي بعد ان سلم علي هل نسيت صداقتنا وبعد اخذ ورد سلمت عليه وبدأنا الحديث فقال عابدين بك الى احمد الرديسي : بعد مدة قليلة سنأخذك عند حاكم الصلح لتشهد على سليم عبد الرحمن وجماعته واياك ان تنسى ما افهمتك عليه من الافادة فأجابه احمد الرديسى : انني لا اعرف سليم عبد الرحمن ولم اره في حياتي فكيف يمكنني ان اشهد عليه وانا اخشى من القسم . فاجابه عابدين بك : نحن نأتي بسليم عبد الرحمن الى ساحة السجن ليغسل وانت تخرج للساحة ايضاً فتراه وبهذه الصورة تتعرف على سليم عبد الرحمن وعند اخذك لاعطاء الافادة امام حاكم الصلح تشهد عليه وتقول ان ان هذا هو الذي ادخلني العصابة وهو رئيسنا الحقيقي وعارف عبد الرزاق الضابط وبهذه الصورة تتخلص من الحكم وقد عيناك (شاهدملك) واذا لم تشهد على سليم عبد الرحمن فلا يمكن ان نجعلك شاهد وتضيع اتعابنا ونحن نسعى الان لخلاصك واما الدعوى المقامة عليك والتي انت متهم فيها بقتل ابنة عمك فسنوكل اليك محاميين فتتبرأ منها واياك ان تتحول عن ذلك وايد محمد ابو خيزران هذا القول ايضاً فأجابهم احمد الرديسى بالايجاب ، وطلب من عابدين بك بعض مآ كل فوعده باحضارها والتفت عابدين بك الي وقال وانت يا علي الا تشهد على سليم عبد الرحمن وعارف عبدالرزاق لنجعلك شاهد ملك ونخلصك من السجن وانت رجل فقير اذا سجنت تموت عيالك جوعاً فقلت له انني لا اعرفه مطلقاً ولم ار طيلة حياتي سليم عبد الرحمن فكيف يمكنني ان اشهد عليه، فقال انك تراه من الشباك عندما يخرج لغسل يديه ووجهه في ساحة السجن فقلت له امرك يا سيدي وبعد هذا الاجتماع بأيام قليلة حضر ذكي افندي القدسي مأمور السجن واخرج احمد الرديسى الى الساحة ووضعني في الشباك وقال : الان سأخرج سليم عبدالرحمن ليغسل وجهه على بركة الماء فتريا وتعرفاه . وبعدقليل من الزمان احضر الى الساحة سليم عبد الرحمن وهو مكشوف الراس يلبس بنطلوناً وقميصاً ابيض بدون جاكيت وقد كبرت لحيته وبدأ بالتغسيل . ولم اكن لأعرفه قبلاً ولا كان احمد الرديسي قد رآه ابداً الا في تلك الساعة على البركة واشار ذكي القدسى ومعه عسكري آخر الينا بأن هذا هو سليم عبد الرحمن واجلسه مدة بالساحة لنتمعن فيه وبعد ذلك اعاده الى غرفته وبعد هذه الحادثة بمدة دعيت للشهادة فأديت ما شاهدته واقسم بالله انني لم أزد عليها حرفاً واحداً» .

هذا مجمل ما بقي عالقاً في الذهن من شهادة علي الحمزه التي كانت موثرة جداً، وهو ما كاد ينهي افادته حتى اغرورقت عيناه بالدموع واخذ يبكي بحرارة زائدة فقال له حاكم الصلح لا تبك وعلام البكاء ؟ فأجاب انني ابكي مما سألاقيه من العذاب والضرب من رجال البوليس لاعطائي هذه الشهادة ضد عابدين بك وقولي الحقيقة فأنا التجيء لعدلكم ياسعادة الحاكم فطمنه وقال له حسن افندي محمد مفتش البوليس لا تخف يا علي وكن على ثقة انه لن يضربك احد . وبعد ذلك خرج الشاهد المذكور ونودي على من حضر من شهود الدفاع فأثبتوا العداوة بيني وبين من شهد علي واوضحوا كيفية ذهاب عابدين بك وحسن افندي محمد ومحمد افندي الجاعوني الى عتيل لاخذ الافادات وغير ذلك من الوقائع وعند انتهاء الافادات عدنا الى نابلس فنمت تلك الليلة كالمعتاد في السجن تحت ادارة ذكي القدسي .

يتبع

طولكرم . سليم عبد الرحمن

***

مذكرات سجين

١٦

بقينا نذهب الى طول كرم ونعود منها الى نابلس على الصورة التي وصفناها سابقاً الى ان انتهت تقريباً شهادات شهود الدفاع الذين بلغ عددهم ما ينيف على المائة والخمسين شاهداً وانتهت افادات شهود الاثبات وهم تقريباً خمسة وعشرون شاهداً على ما اذكر، منهم ما يناهز الثمانية من رجال البوليس والباقي من الاهالي اثنان منهم وهما احمد الرديسي الشقي الشهير ومحمد ابو خيزران (وكلاهما من اقطاب عصابة النهب والسلب) اعتبرا شاهدي ملك والباقون من شهود الحق العام.

هذا وبعد اتمام التحقيق وانهائه عدت ظهر احد الايام وليس معي في السيارة الا حسن افندي محمد مفتش البوليس وكان بجانب السائق رجل متحمس للوطنية يسمى السيد احمد القيسي يختلس النظر الي ويرسل لي ابتسامات ملأت نفسي سروراً وطمأنينة الى ان الحق لا بد وان يعلو وحاولت اثناء الطريق ان احادث حسن افندي محمد لاستجلاء رأيه عن نتيجة هذه التحقيقات فكان متكتماً نوعاً الا انه كان يصارحني بأن في المحكمة عدالة لا يؤثر عليها مؤثر وان البريء لديها بين والمجرم غير خاف امره. وقد رأيت منه في تلك السفرة خبرة بشؤون القضاء لوجوده مدة في مثل هذه الوظيفة... وتوقفنا فجأة في الطريق لاننا رأينا كيساً مملوءاً من ثمر العناب ملقىً على جانبها ولقد كان سروري عظيماً بهذه الفاكهة التي احبها، وكان سروري اشد عند ما سمح لي ان اشارك ركاب السيارة بالاكل منها ... وانتهينا الى سجن نابلس فاستقبلنا ذكي القدسي بشاشته المعهودة !! واودعنا السجن ...

وفي اليوم الثاني اخرجني ذكي القدسي عند الظهر لساحة السجن فرجوته بعد قضاء حاجتي ان يسمح لي بالبقاء في الساحة برهة قليلة ليتمتع جسمي قليلاً بحرارة الشمس واستنشق رائحة الهواء الطلق اسوة ببقية السجناء الذين يقضون ساعات طويلة خارج الغرف في الصباح والظهيرة والمساء في كل يوم. وقد قلت مما قلت لاقناعه ان التحقيقات قد انتهت ولم يبق ما يخيفك يا ذكي افندي من ان ارى احداً او من اشارتي لاحد فقبل الرجاء واجلسني الى باب خرب في الساحة وقام ليصلي، وذكي القدسي يصلي !، وبعد ان فرغ من صلاته عاد الي ليمازحني وليأخذ مني ما يقربه من آمريه ككلمة افوه بها او غير ذلك الا انه حاول عبثاً، اخيراً اخذ يطمئنني بأن الحكم علي سيكون خفيفاً وانه لن يتجاوز العشر سنوات فقط لا غير فأوجعت قلبه اذ اكدت له بأن البراءة لابد وانها حاصلة لان الحق في قضيتي اوضح من نور الشمس.

وفي تلك البرهة حضر للسجن شاب ذو جسم ممتلئ صحة وعافية يشغل وظيفة كاتب السجن لأن ذكي القدسي امي وهو بحاجة الى كاتب، واسم هذا الشاب علي افندي العسلي فبعد ان استراح قليلاً وغسل وجهه ويديه اخذ ذكي القدسي يحادثه متهكماً ويدعوه للصلاة والعبادة فوقع بينهما جدال عنيف يدور حول عبادة الله وظلم الانسان، فذكي القدسي يقول انه يجب على الانسان ان يصلي وان يقوم بواجباته الدينية اما الكاتب فيقول ان على الانسان ان لا يظلم وان لا يضر الناس وان يكون حسن النية طيب القلب وان الله تعالى يعفو عن حقوقه، والصلاة والعبادة من حقوق الله، وهكذا اشتد الخلاف وحمي وطيس الجدال بينهما فطلب ذكي القدسي تحكيمي في هذا البحث فوقعت في حيرة فان قلت غير ما يريد ذكي فتلك مصيبة اذ انه يغضب مني ويزجني في غرفتي المظلمة وان قلت خلاف ما يريد كاتب السجن فالامر لا يقل خطورة، فحاولت ان ارضي الطرفين الا ان ميلي للمصادقة على ما يقول ذكي كان اكثر خوفاً من غضبه، وهكذا كان حكمي بجانب قول ذكي وهذا الحكم في حد ذاته كان من قبيل اغضاب الله طمعاً بعفوه وارضاء الانسان اتقاء لشره. وهكذا ظللنا بضعة ايام نسمع فيها آراء ذكي القدسي وافكاره وامثاله الغريبة.

وفي مساء ذات يوم رأيت من ذكي القدسي اهتماماً زائداً بأمر غرفة صغيرة تسمى «الزنزانة» كانت على مقربة من غرفتي، فقد حضر اليها ومعه اشخاص لم اعرف واحداً منهم وبضعة جنود ... استلفت الحادث نظري فحاولت في تلك الليلة، وبعد ان سكنت الضوضاء ان اعرف من في ذلك المكان السحيق الذي لا يزيد طوله عن متر وعرضه عن نصف متر ولكني عبثاً حاولت وغاية ما استطعت رؤيته في دجى ذلك الليل هو بضعة جنود تحرس تلك الغرفة وتراقب في الوقت نفسه باب غرفتي فخيل لي ان في الامر ما يتعلق بي وساورتني الهواجس طيلة ذلك الليل. وفي صباح اليوم التالي هرولت مبكراً نحو باب الغرفة الصغيرة فرأيت من بين شقوقه الشاهد المتهم علي الحمزه الذي ذكرنا حادث شهادته في العدد الماضي وقد فهمت ان معه احد المتهمين حسين القاسم وان من كان من المتهمين في عكا قد أحضر الى نابلس فرابني الامر وقلت لعل هناك نكبة جديدة ايضاً فساورني القلق حتى ظهر ذلك اليوم واذا بذكي آت الي قائلاً : البس ثيابك وهيء نفسك فانك مطلوب لمحل قريب فسألته عن ذلك المحل فلم يزد على ما قاله حرفاً فتهيأت وبعد قليل عاد ذكي فقادني الى باب السجن وسلمني للحرس فساقوني الى الطابق العلوي من سراي نابلس وذهبنا تواً الى غرفة حاكم الصلح فعلمت ان هناك شهادة جديدة تؤخذ علينا بالاستنابة ولدى دخولي من باب الغرفة رأيت وماذا رأيت ؟؟

يتبع

طولكرم سليم عبد الرحمن

***

مذكرات سجين

١٧

دخلت غرفة حاكم صلح نابلس يحرسني الجنود بحرابهم وبنادقهم فلما وطأت قدماي باب الغرفة رأيت القانوني الفاضل الشيخ كمال افندي العبد الله حاكم الصلح جالساً على كرسيه وامامه خير الدين بك بسيسو مساعد قوماندان البوليس والى يمينه حسن افندي محمد مفتش بوليس نابلس والى يساره كاتبه الخاص ، ورأيت على الارض شخصاً يلبس الثياب البدوية جلس متمدداً فوق آلة نقالة تستعمل عادة لنقل الجرحى (وهذا الشخص هو احمد الرديسي) ، وقد جلس على مقاعد خشبية ايضاً عارف عبدالرازق وحسين القاسم وعلي الحمزه ويوسف الشايب وعبد القادر السلامه ومحمد حامد ابو حوش ومحمد البدوي كريم وسليمان ابو اهديب وهؤلاء جميعهم متهمون بتشكيل العصابات فأجلست الى جانبهم ووقف الحرس من خلفنا شاكي السلاح ، وبدأ جناب حاكم الصلح الكلام فأبان ان الغرض من هذا الموقف هو سماع شهادة احمد الرديسي الشقي الشهير (وقد القي القبض عليه من قبل البوليس بعد ان تبادل واياه الرصاص مدة) بالاستنابة ، ثم بدأ يلقي على الحاضرين ما كان قد دون قبلاً من شهادة الرديسي في محضر دائرة البوليس فاعترضت على ذلك لفوري وطلبت ان ينسحب ضباط البوليس من الجلسة لأن في وجودهم ما فيه من التأثير على سير العدالة . فقال حاكم الصلح : اننا نأخذ الافادة الآن بالاستنابة والمسألة لا تحتاج للاخذ والرد فرجوته ان يُفهِم شاهد الملك احمد الرديسي شفاهياً معنى الافادة التي دونت باسمه في محضر البوليس لانه لا يفهم اللغة العربية الفصحى فبدأ الشيخ كمال افندي يفهمه معنى افادته المأخوذة قبلاً وخلاصتها انه (احمد الرديسي) قد دعي لأن يدخل في عصابة الاشقياء التي يرأسها عارف عبد الرازق وان سليم عبد الرحمن قد حرضه على الدخول فيها وانه ذهب للنهب والسلب مع المتهمين الموجودين في تلك الجلسة وانه اشترك معهم في ثماني جنايات نهب وسلب وتشليح في الطريق العام ، فلما انتهى حضرة حاكم الصلح من سرد افادة احمد الرديسي المدونة في محضر البوليس سئل احمد الرديسي عما اذا كانت هذه الافادة المعزوة اليه هي افادته ام لا ، وهل هو يصادق على ما جاء فيها ام لا ؟ فأجاب الرديسي انني لم اعط هذه الافادة وليست لي معرفة مطلقاً مع سليم عبد الرحمن ولم اره في كل حياتي ولم اشارك المتهمين في سرقة ما ولم اعمل اي جرم ولا اعرف عن هذه الافادة شيئاً وانما اذكر انني وانا في مستشفى يافا حضر لعندي عابدين بك ومحمد ابو خيزران فان كان عابدين بك قد كتب على لساني شيئاً فقد كتبه بدون علمي وانا لا اتذكر انني قدمت مثل هذه الافادة لأنني كنت مجروحاً ومريضاً وعابدين بك هو الذي كتبها وانا لا اعرف شيئاً مما جاء على لساني وما عرفت سليماً في كل حياتي ولم أكلف للدخول في عصابة ما لا من قبله ولا من قبل اي كان من طرفه . . .

وعلى اثر ذلك سألته ان يتأكد جيداً اذا كان يعرفني ام لا ؟ فأجاب بأنه لا يعرفني وان كل ما جاء في الافادة انما كتبه عابدين على لسانه وانه يعرف ان عابدين خصمي وعدوي . وبعد ان انتهت افادته المتعلقة بي نُقلتُ الى غرفة ثانية وتابع الرديسي انكار افادته وبيان كذب ما كتب على لسانه بحق بقية المتهمين وبعد ذلك نودي على شاهد الملك الثاني محمد ابي خيزران فدخل وكان طليقاً وادى الشهادة على بقية المتهمين وتجادل مع احمد الرديسي الذي كان يحتد من افادة محمد خيزران ويبين كذبها الى ان انتهت الافادة فأعادونا الى غرفنا في السجن وكان سرورنا عظيماً جداً لظهور التزوير والتلفيق وكان بعض رجال البوليس يكادون ان ينشقوا من الغيظ والكدر لافادة احمد الرديسي وانكاره ما كتب قبلاً على لسانه . وبعد ان مكثت برهة في السجن جاءني ذكي القدسي وامائر الغضب تعلو وجهه فصاح بي ان آتيه بحرامين كنت رجوته اعطاءهما لي ليقياني شر الرطوبة ولأريح جسدي عليهما فسلمتهما له وسألته عن السبب فقال انك تعرف صنعك اليوم فكأن العم ابو داود اغضبه انكار الرديسي وايضاحه الاعمال المخالفة فجاء ليتشفى مني بتركه اياي عرضة للبرد والرطوبة فأخذ الحرامين مني وتركني متوعداً مهدداً . وبعد قليل حضر لعندي خير الدين بك بسيسو فشكوت اليه امر ذكي فساءته هذه المعاملة التي لا يراها اي مسجون حتى ولو كان محكوماً عليه بالاعدام فأعاد اليّ الحرامين رغم انف ذكي القدسي وكانت هذ هي المرة الثانية التي انتصرت فيها على بعض استبداد ذكي القدسي وكنت قد انتصرت عليه لاول مرة في حادث يوم العيد .

وبقينا على هذه الحالة بين غضب ذكي ورضاه وشدته وتساهله بضعة ايام أخرى ، ففي ذات يوم بينما كنت اسير بين جدران غرفة سجني الواسعة الارجاء اذ سمعت رجال الحرس في الخارج يتهيئون للسلام فأدركت ان قادماً ذا رتبة كبيرة وصل الى السجن فاختلست النظر الى الخارج من بعض شقوق الباب واذا بي ارى السيد عابدين الحشيمي داخلاً للسجن وكان قد عاد حديثاً من دمشق بعد ان قضى فيها شهراً باذن خاص (روى لي البعض اخيراً انه سمع اشاعة مفادها ان ذهاب السيد عابدين الحشيمي الى دمشق في ذلك الوقت كان الغرض منه السعي مع حكومة فرنسا لتطلبني وتنفذ حكم الاعدام بي ولكنه لم يفلح لأن العفو كان قد شملني) فدهشت اذ رأيته يسير تواً الى غرفة احمد الرديسى الشقي الشهير وبقي معه في الغرفة يتبادل واياه انواع الحديث وصوت قهقهتهما يملأ فضاء السجن ويصلني جلياً اكثر من ساعتين وبعد ذلك خرج من عنده واتى نحو غرفتي فأمر بفتح بابها الحديدي ففتح ودخل وبعد ان سلم عليّ وصافحني وهو يبتسم بدأ الحديث فقال :

يتبع

طولكرم سليم عبد الرحمن

***

مذكرات سجين
١٨

دخل عليّ السيد عابدين الحشيمي وانا في غرفة السجن الواسعة الارجاء ولحيتي مسترسلة وحالتي سيئة فبادرني بالمصافحة وقال : لقد عدت امس من دمشق وجميع الاصدقاء فيها يهدونك السلام وقد اوصوني بك خيراً فكيف انت الآن ؟ فقلت له: كما ترى يا سيد عابدين اني رأيتك تذهب لعند احمد الرديسي فهل من افادة جديدة يعطيها؟ فقال لا وانا انما دخلت لتفتيش السجن واني احب ان اؤكد لك ان ليس من علاقة لي بكل ما يخامرك من الشكوك والظنون بأني مدبر هذه الدعوى ضدك او اني مرتبها ، وغاية ما في الامر ان اخصامك اشتغلوا طويلاً وراجعوا القومندان وحاكم نابلس مراراً ، وبعد شكايات عديدة أُمرت بأخذ افادات الشهود ضدك ففعلت ، وجل قصدنا اظهار العصابة فظهرت وليس من اعطى افادة عن يدي الا شاهدي الملك وهما احمد الرديسي ومحمد خيزران وهذان لم يشهدا عليك بشيء وغداً ستطلع على افادتها وتسمع شهادتها واما بقية الشهود فكانوا يستحضرون الينا فنأخذ افاداتهم ، فأنت ترى انه ليس لي اي عمل يوجب غضبك مني وان كنت تظن ان ما كتبته في جريدة الاهرام والمقطم وغيرهما من الجرائد قبل سجنك قد اثر عليّ فأنك واهم ، وان يكن هذا العمل قد نبه افكار البوليس لهذه القضية ، غير انه لم يغضبني وانا اول من يساعدك في سجنك وقضيتك .

فقلت له لماذا اذاً كتبت افادة احمد الرديسي ونظمتها كما تحب وهي تحتوي على طلبي اليه دخول العصابة وجعلته يوقع عليها كما افاد في محكمة الصلح منذ ايام وما الذي يجبر احمد الرديسي الشقي الشهير وهو لا يعرفني قط على مثل تلك الشهادة الكاذبة اذا لم يكن لك ضلع او علاقة في الموضوع ؟؟؟ فأنكر كل الانكار واجهد نفسه كثيراً ليقنعني بأن لا علاقة له بترتيب تلك القضية وانه ساع في مساعدتي واظهار الحقائق وانه قريباً سيصير اطلاق سراحي بالكفالة وذلك ما كانت تمانع فيه دائرة البوليس من قبل . ثم سألني اذا كان من حاجة لي ليقضيها او شكاية لينظر فيها فطلبتُ منه حلاقاً ليحلق شعري وان يرخص لي كباقي المساجين ان ابقى في ساحة السجن ليرى جسمي نور الشمس وحرارتها وبيّنت له سوء المعاملة التى يجريها معي ذكي القدسي ورجوته ان كان معه جريدة ما فيعطيني اياها . فسلمني جريدة مرآة الشرق وعلبة سكاير واحضر ذكي القدسي واعطاه الاوامر اللازمة بعدم مضايقتي والتشديد عليّ وان ينفذ طلبي في امر النظافة والحلاقة وابقائي كباقي المساجين في ساحة السجن بضع ساعات وقد مازحني كثيراً ورأيت منه ليناً كبيراً وفهمت منه خلاصة الاخبار الخارجية وعلمت ان الصحافة منتصرة لقضيتي انتصاراً عظيماً وان الرأي العام قانع بتزويرها وكذب شهودها ووعدني ان يزورني في كل ثلاثة او اربعة ايام مرة وودعني باشاً وخرج .

والحق يقال انني سررت يومئذ من معاملة السيد عابدين هذه اشد السرور وارتحت اشد الارتياح لتلك المقابلة الودية وفي الوقت نفسه وقعت في حيرة من امر هذا الرجل وقلت في نفسي عند ما تمعنت في محاولته تبرئة نفسه من قضيتي يجب ان يكون عابدين احد اثنين : اما انه صادق في مدعاه او انه اكبر مخادع رأيته حتى الآن . واخذت بعد ذلك انشد بعض الاناشيد الوطنية وبينا انا كذلك جاء ذكي القدسي وكان باسم الثغر وجعل يلاطفني ومما قاله لي : آه يا سليم من اين لك هذه الصداقة مع سعادة البك فقلت له لا تسل يا ابا داود فأجاب اسمع يا ابا العبد لو كنت عاقلاً لما اغضبت البوليس . الا تدري ان كل اهل فلسطين لا يعادل غضبهم رضاء نفر بوليس ؟! فأنت قمت تكتب بالقزازيط (الجرائد) على البوليس وتريد الانتصار للفلاحين واهل الوطن في قضية ضرب البدوي كريم من طرف البوليس فغضب عليك البوليس وبعدها سجنت ، فعليك يا ابا العبد ان تسترضي البوليس وان لا تغضب اقل نفر من رجاله وماذا يهمك من الوطن واهل الوطن ... فقلت له امرك يا ابا داود ولكن هلا سمعت مرة الحديث الشريف الذي يقول « حب الوطن من الايمان » قال طيب نحب الوطن ولا نزعل البوليس فقهقهت ضاحكاً وبعد مزاح قليل من هذا النوع ودعني وذهب ليأتي بالحلاق على ان يعود بعد الظهر وفي وقت الغداء عاد اليّ ذكي وقال :

يتبع

طولكرم سليم عبد الرحمن

***

مذكرات سجين

١٩

قال ذكي القدسي لقد احضرت لك طعاماً خاصاً زيادة عن استحقاق المسجونين وها هو الصحن مملوءاً بالعدس وسأعطيك رغيفاً زيادة على راتبك واليك رأس من البصل لكن اياك ان يراه احد وبعد ان تتغدى سأحضر لك الحلاق ليحلق لك شعر رأسك وذقنك وكل ذلك اكراماً لخاطر عابدين بك ولولاه لما رأيت هذا مني مدة سجنك عندي . فشكرت له انعامه العالي!! واظهرت له الامتنان، وبعد ان تناولت الطعام المذكور الذي كان عبارة عن عدس مغلو في الماء الحار (وكان هذا طعامي كل مدة وجودي بالسجن خلا الايام التي تلت زيارة مدير الامن العام للسجن وسيأتي تفصيل ذلك في الاعداد الآتية) اخذت اتمشى في قاعة الغرفة التي انا بها لحين ايواء المساجين في غرفهم واذا بذكي القدسي يصيح بي فهرولت للباب الحديدي فقال اسمع يا ابا العبد سأحضر لك الحلاق الآن ولكن احذر من اي كلمة تقولها له او اي اشارة تبديها وامنع عينيك من النظر اليه وابعد كل حواسك عنه والا ترى اشد انواع الضيق . فقلت له : لك الامر وعلينا الطاعة يا ابا داود، وبعد قليل اخرجني الى باب غرفتي المستور بخيمة صغيرة واجلسني على مقعد من التراب ووضع تحتي حراماً ، وبعد بضعة دقائق جاء الحلاق فارس شريك الحلاق الشهير السيد علي سلامه صاحب الحانوت الواقع بجوار السراي فسلم عليّ وبعد ان جلست قليلاً نظر اليّ ونظرت اليه فتبادلنا العواطف وبدأت اسرد اقطار المترادفات له في مدح ذكي القدسي وبطولته!! وحسن معاملته ومقدرته على ادارة السجن وكفاءته لان يتربع أعلى المناصب والخ ...... وكأن هذه الكلمات اخذت بمجامع قلبه وكان الى جانبه نفر بوليس ذو نفس ابية واخلاق رضية وشهامة عربية طيب القلب حسن السريرة لم ارَ مثله الا القليل مدة سجني فوكله بمراقبتي وذهب ليتوضأ ويصلي واذ ذاك رُفع عنا الكابوس فبدأنا نتحادث همساً وسرني ان علمت ان الناس واقفون على الحقائق ويعرفون ما تخلل قضيتي من التزوير وانواع الالاعيب وما انا به من شدة وضيق، فارتاح ضميري لذلك، وما كاد الحلاق ينهي عمله حتى حضر ذكي القدسي وادخلني غرفتي واغلق بابها الحديدي العظيم وبقيت وحدي، ودامت هذه العزلة فلم اعد اذهب الى طولكرم او أطاب لاي افادة وعبثاً كنت احاول ان اخاطب احداً من الجنود او غيرهم من المساجين لان ذكي القدسي يراقب وقد رجوت كثيراً بعد ان انتهت التحقيقات ان يكون عندي احد المساجين لاحادثه ويحادثني فعبثاً رجوت . وفي احد الايام اذا بذكي القدسي ينتهرني ويعطيني الاوامر بأن لا اقترب من الباب ولا من الشباك فامتثلت ، ثم جاءني ذات يوم ومعه احد المساجين يحمل بيده الصفحة التي اتناول منها طعامي فصاح بي ان اقترب من الباب ففعلت فقال لي : يا سليم اعلم ان المسئلة بسيطة جداً وهي ان تأخذ هذا الدبوس وهذه الصفحة وتسرع الى جدران غرفتك فتنقيها من البق وتضع ما يخرج بهذا الدبوس في الصفحة وهي عملية لاجل التسلية والنظافة والصحه ولا يبقى في غرفتك بق او شيء من الحشرات فأدهشني هذا الامر وبدأت أحادثه باللين راجياً اياه ان يتكرم فيدفع ثمن قليل من الشيد واجرة عامل من النقود التي لي في صندوق السجن ليدهن الجدران بنصف ساعة وننتهي من عملية البق وقذارته والعذاب في كيفية تلقيطه من الجدران سيما وانه لا يرى في مكانه الا بصعوبة كبيرة فعبثاً حاولت اقناع ابو داود الذي يصر على ان التقط البق من امكنته في الدبابيس واضعه في صفحة الطعام فبعد جدال طويل هاجت بي النفس واضطرب الفؤاد فصحت به صياح المجانين حتى دوى صوتي في كل انحاء السجن وقلت له اذهب وافهم من ارسلك انني افضل الف مرة ان يخترق صدري رصاص الجند وحرابهم على ان إقدم على مثل هذا الذل والهوان وان عملك هذا المخالف لكل قوانين الارض والسماء لن اقبل به ما زلت حياً وحذار ان تفوه بكلمة او ان تدنو مني والا ترى ما لم يسمعه بشر، فلم ينبث ببنت شفة وطأطأ رأسه وعاد ادراجه متوعداً السماء بقبضته وعلامات الغضب الشديد بادية على عينيه الخضراوين وفي وجهه الانقر فعدت لنفسي التي كانت تهتز مثل الكهرباء من هذه المظالم وهدأتها ، وقبيل الغروب اتى ذكي القدسي ومعه جنديان يحمل كل منهما حديداً ليضعاه في يدي ورجلي فاقترب من الباب محاولاً فتحه فصحت به : قف الظالم لا تفتح الباب عليّ واياك ان تقترب مني ، فصرخ بي قائلاً لا بد لي من تربيتك وتأديبك وسأضع السلاسل في يديك ورجليك فلا تمانع . اما ما جرى بعد فالى الآتي .

يتبع

طولكرم سليم عبد الرحمن

***

مذكرات سجين

٢٠

تجادلت مع ذكي القدسي قليلاً وآليت على نفسي ان لا أمكنه من تكبيلي بالحـديد مهما كلفني الامر ، وكأني بذكي شعر بدم الغضب يغلي في عروقي فلم يحاول ايضاً فتح باب غرفتي ، وتدخل رجل البوليس الذى بصحبه في الامر واخذ يهدئ روعي قائلاً ان ذكي افندي عصبي المزاج يغضب لأقل شيء لذلك ارجوك عدم المؤاخذة وما عليك الا اطاعته ، وها انا اتوسط بينكما ليمتنع عن تكبيلك بالحديد وارجوك ان تصالحه وان لا تغضبه بعد ، وبعد قليل من التمنع تصافيت مع ذكي وتركنـا البوليس وذهب وتبعه هذا على الاثر

وجن الليل وارخى الظلام سدوله واذا بذكي يناديني من وراء باب غرفتي فدنوت منه فمد الي يده وقال اليك يا ابا العبد هذه السيكارة ثم اخذ يطيب خاطري وبعد حديث طويل كله مجاملات قال لي ان عابدين بك قد يزور السجن غداً فاياك ان تخبره بما جرى بيننا ، وقد يمكن ان يأتي القومندان ذاته او المفتش فهل لك ان لا تنالني لدى احدهمـا بكلمة سوء ؟؟ قلت بل لا بد لي من شكوى سوء معاملتك لي يا ابا داود فأخذ يسكن روعي بلين الكلام وجميله ويمنيني بالوعود الخلابة حتى اظهرت له الرضا ووعدته بما طلب فودعني بعد ان زودني بسيكارة ثانية وذهب يتبختر بخيلاء ، وبقيت على هـذه الحالة الجديدة اياماً

وفي يوم جاءني ذكي القدسي وقال هلم يا سليم والبس ثيابك فانك ستذهب الى مكان قريب فأطعت ولم اسأله زيادة ايضاح لعلمي بأنه لا يجيب وبعد ان لبست ثيابي اخذ احد الجنود بيدي وسـار بي الى غرفة ضابط البوليس الكائنة في الطابق الثاني من دار الحكومة فدخلتها واذا بي ارى السيد عابدين الحشيمي متصدراً المكان وقد جلس الى يمينه شقيقي سمير وابنا عمي عفيف وحسن الحاج ابرهيم فسلمت عليهم وسررت جداً لرؤيتهم ثم جيء لي بالقهوة فشربتهـا وتبادلت حديثاً معهم اشترك فيه السيد عابدين وبعد مدة نهض زواري للذهاب وقمت بقصد العودة الى السجن واذا بحضرة الوطني الهمام السيد احمد الشكعه قد حضر وبعد ان صافحني وسلم علي طلب من السيد عابدين وحسن افندي ان يسمحا له بالجلوس الي قليلاً فسمحـا وبعد حديث لم يطل امده ودعت الجميع وعدت الى غرفتي في السجن .

ومما اذكره على ذكر انفرادي في غرفتي في السجن انني كنت طلبت من حسن افندي محمد مفتش بوليس لواء السامرة كتاباً اقطع الوقت في مطالعته فوعدني بذلك وارسل لي مع ذكي القدسي رواية ولكن هذا احتفظ بها ولم يسلمها لي ، ورغم اوامر حسن افندي العديدة فقد ظل ذكي محتفظاً بالرواية وهكذا فلم اقرأ تلك الرواية وخرجت من السجن قبل ان اقرأها لأن ذكي افندي القدسي كان يخشى علي من الم العينين على ما يظهر !!!

بعد بضعة ايام جاءني ذكي القدسي هاشاً باشاً وقال لي هلم يا ابا العبد والبس ثيابك وسآتيك بالحلاق ليحلق شعرك وبعد قليل ستذهب الى مكان يسرك ، وبعد ان لبست ثيابي وحلقت شعري خرجت وليس معي الا رجل بوليس واحد اعزل من السلاح وهو شاب لطيف المعشر وبمرورنا من منتصف الشارع على هذا الشكل ظن النـاس انني خرجت من السجن نهـائياً ، وكان ممن رآني الدكتور الفاضل صدقي افندي ملحس فحاول ان يقترب مني ويسلم علي فأشرت بعيني الى حارسي ففهم انني مـا زلت سجيناً واحجم متأثراً . وتابعنـا نحن السير الى القشلاق العسكري حيث مركز قيـادة البوليس فأدخلت الى غرفة رأيت فيها السيد عابدين وحسن افندي محمد فسلمت عليهما ورحبـا بي وبعد ان جلست قال لي السيد عابدين: ان اخاك سلامه افندي وبعض اقاربك طلبوا ان يروك فرخصنا لهم فعساك ان تكون مسروراً وان تخفف شكواك من التضييق عليك فغمغمت بين شفتي اسم ذكي القدسي فقهقه ضـاحكاً ، وبعد قليل دخل الغرفة اخواي سلامه وسمير ومعهما ابن عمي عفيف والوطني الفـاضل عبد الله افندي السمارة والوجيه الهمام صالح افندي الصلاح وبعد السلام والجلوس دخل الغرفة حضرة المحامي البـارع عثمان افندي البشناق واخذنا جميعاً نتجاذب اطراف الحديث في مواضيع شتى وكانت اشارات عبدالله افندي السماره تنبئني بأخبار الخارج التي اتوق الى معرفتها ؛ وبعد ان امضينا ساعة لا يستطيع قلمي التعبير عن مقدار سروري بهـا نهضوا جميعاً فودعوني وسافروا وبقيت منفرداً مع السيد عابدين وحسن افندي وبعد قليل افتتح السيد عابدين الحديث فقال :

يتبع

طولكرم — سليم عبد الرحمن

مذكرات سجين

٢١

وبعد ان ودعني شقيقي سلامه وبقية الاخوان الذين ذكرتهم وغادروا غرفة البوليس خرج حسن افندي واختلى بي السيد عابدين الحشيمي فقال لي: كيف معاملة ذكي لك في هذه الايام؟ فبينت له ما يجريه من الاعمال المنكرة، فعاد واكد لي انه يرغب في براءتي وخلاصي وانه رأى الناس متألمين لسجني وانه ما خطر له قط ان يكون لي علاقة ما بالعصابة او الاشقياء وانه يشتغل لمساعدتي باظهار الحقائق، واعاد البحث الذي كان ذكره سابقاً وقال لي انه سينبه على ذكي القدسي بالاعتناء بي وانه سيجري كل ما يمكنه من الخدمة لراحتي فودعته بعد ان اظهرت له بعض الريب في اقواله وعدت الى السجن مزوداً ببضعة قطع من الحلوى والسجاير فأدخلني ذكي هاشاً باشاً منتظراً مني ان اثني عليه امام عابدين بك ودخلت غرفتي مسروراً، وبعد ان مضى عليّ يومان جاءني ذكي القدسي ظهراً وفي اشد حرارة الغيظ وصاح بي ان اقترب من الباب الحديدي، فلما دنوت منه بادرني بالشتم والغضب الشديد قائلاً: انك نظرت من الشباك ورأيت منه المساجين فهذا ذنب كبير لا يغتفر ولا بد من مجازاتك بأشد انواع الجزاء على هذه الزلة الكبرى كيف يمكنك ان تخالف اوامري؟ الا تدري بأني شديد جداً فسأريك الشدة وسترى العذاب. فقلت له: لا شك انك تعاملني هذه المعامله للانتقام مني يا ذكي لا لمخالفة النظام والتنبيهات اذ كيف يمكنك ان تؤاخذني بحجة نظري من الشباك الى ساحة السجن مع ان الشبابيك تعلو عن الارض مترين او اكثر وانما هذه اوامر صدرت اليك والغرض منها التضييق على سليم ولكن اذهب واعلم من اوعز اليك انني لا ارهب هذه المعاملات غير القانونية وافعل ما بدا لك، فخرج حانقاً مزمجراً متوعداً مهدداً وعند المساء حضر ومعه السيد عابدين وحسن افندي فاقتربا من الشبابيك فوجدا حقيقة انه لا يمكن لأي انسان ان يتسلقها او ينظر منها الى ساحة السجن فهدّآ حنقي وخرجا بعد ان افهما ذكي ان لا يعود لمثل هذه المعاملات.

وقد مضى على هذا الحادث بضعة ايام كنت اشعر في خلالها براحة ضمير تامة وفكر هادئ، ففي ذات يوم بينما كنت سابحاً في بحر الافكار اذ حضر ذكي وطلبني للباب ودخل شاب بهي الطلعة، متوسط القامة اسود العينين تلوح عليه امارات الذكاء والنشاط والمقدرة، فلما تمعنت في وجهه عرفت به حضرة القانوني البارع موسى افندي نمر مدعي عام لواء السامرة فسرتني رؤيته لطول الزمن الذي مضى على سجني وشعرت ان ساعة المحاكمة واظهار الحق وبطلان التزوير قد دنت، فبعد ان بادرني بالتحية كما هو شأن رجال العدالة بلغني قرار الاتهام واذا بهذا القرار الصادر من حاكم صلح نابلس والمصدق عليه من النائب العام مستر بنتويتش يمنع محاكمتي من قضية الترازينة، ويتهمني (بفرع ذي مدخل) في ثمان جنايات وقعت في اوقات مختلفة وامكنة متباينة من قبل عصابة تشليح ونهب وسرقة وسلمني عريضة الاتهام الطويلة الكثيرة الصفحات فرجوت منه ان يمكنني من معرفة الاسماء او الكلمات التي لا اقدر على قراءتها لأن ذكي القدسي حاجز شديد لا يمكنني حتى من رؤية المحامين فقال لي اذا اشكلت عليك مادة او كلمة من عريضة الاتهام فابلغنا بواسطة البوليس، وودعني وانصرف.

وبعد ان قرأت هذه الصفحات الكثيرة رأيت اغلاطاً جمة في اسماء شهود الدفاع وبعض مواد لم اتمكن من قراءتها بسبب عدم ظهور حروفها فطلبت تصحيح هذه الاغلاط وان لي شهود دفاع آخرين اود طلبهم، وبينت هذه الملاحظات للبوليس، فرخص لي بعد يومين ان اخرج لبيان ذلك للمدعي العام فذهبت ومعي ذكي القدسي بعد ظهر احد الايام ودخلنا غرفة المدعي العام فأخذت اشرح تلك الاغلاط

يتبع

طولكرم — سليم عبد الرحمن

مذكرات سجين

٢٢

دخلت غرفة المدعي العام موسى افندي نمر ومعي ذكي القدسي يراقب حركاتي ويحصي علي انفاسي فوجدت موسى افندي جالساً على مكتبه والى يمينه شاب بصحة جيدة طويل القامة هو سكرتيره رمزي افندي . وبعد التحية اقتربت من موسى افندي وقرأت امامه ورقة الاتهام وسألته عن اسماء كثيرة من شهود الدفاع وبعض مواد لم تظهر حروفها من مواد الاتهام فأوضح لي كل ما طلبت بلطف لا مزيد عليه فبينت له ان لدي شهوداً آخرين اود تسميتهم فقال : ان القانون يجيز لك ان تذكر اي شاهد اردت فاطلب في اي وقت من البوليس فهو يقدم لك ورقاً فتحرر عليه اسماء شهود الدفاع الذين تود استحضارهم امام المحكمة وعليه ودعته وعدت يحرسني ذكي القدسي مشدداً علي المراقبة ، فدخلنا السجن والى الغرفة المعدة لي فولجتها ، وبعد ان استرحت قليلاً بدأت اشعر بين ظلمات ذلك المكان السحيق ووراء تلك القيود الحديدية وهاتيك الابواب الفولاذية ومن اعماق وحشة السجن ان ساعة العدالة قد دنت وان الحق سيظهر بأجلى مظاهره وان ساعات الظلم تتقلص ، وعملت حساباً ليوم المحاكمة الرهيب فوجدت انه يقع في ٢٠ ت ١ ١٩٢٤ فتكون الايام الباقية للمحاكمة خمسة وعشرين يوماً فسرني قرب الخلاص ودنو القضاء على ايام البؤس والشقاء فتلذذت بنفسي ، وفيما انا كذلك واذا بذكي القدسي يدنو مني باشاً هاشاً فاقتربت منه فرحاً مسروراً وبدأت اداعبه وسألته عن رأيه في محاكمتي ونتيجتها فقال تأكد يا سليم انك ستحكم عشرة سنين وهذا بعد ان ترحمك المحكمة وتشفق على شبابك والا فأجرامك ونهمك تستحق اكثر بكثير من ذلك ، فقهقهت بملء فمي فهاله ضحكي ، وقلت له : الا تقبل بحكم ثلاث او خمس سنوات ؟ قال : مسكين انت لانك لا تعرف القانون ، اما انا فأحضر كل المحاكمات التي تجري لذلك ان قلت لك انك ستحكم فيجب ان تعرف انه قول ثقة . فهزأت به و بأقواله وقلت له ان الحق سيأخذ مجراه وعند انتهاء المحاكمة ان ترني عندك يا ذكي ، فقال : بلى لانك ستذهب لعكا ، قلت له : نعم ولكن للنزهة والفسحة ..... وبعد هذه المداعبات والاحاديث التي كان ذكي يحاول منها كثيراً ان يستفيد من سماع كلمة ليبلغها او غير ذلك تركني وذهب .

بعد ان مضى على هذه الحادثة بضعة ايام جاءني ذكي القدسي في صبيحة يوم ودلائل الاهتمام بادية على وجهه وقال لي ان سعادة مدير الامن العام سيشرف في هذا النهار للتفتيش في السجن . فأرجوك يا ابا العبد رجاء خالصاً ان لا تقول لسعادته عني ما يسيئه واذا سألك عني فاذكرني امامه بالخير ، وانس بربك ما وقع بيننا من خلاف ومشادة في بعض الاحيان لأن سعادة مدير الامن العام اذا بلغه عني ما يكدره يطردني من الخدمة ، فأنا كما ترى يا سليم رهين اشارتك واقسم انني لن أزعلك بعد مطلقاً ، واكثر ذكي من مدح نفسه واجزل لي وعوده فضحكت من هذه المناورات وقلت ليكن ما تريد يا ابا داود ..

بعد قليل بدأت حركة الغسيل والتنظيف في كل انحاء السجن وجاء المستر لامب ليفتش الغرف و يراقب الترتيب اللازم ، وبعد ظهر ذلك اليوم سمعنا اصوات الخفراء يتهيئون للسلام فعلمنا ان القادم المنتظر قد وصل وبعد ان تفقد غرف السجن وفتشها وصل الى باب غرفتي الحديدي ففتح امامه ودخل الغرفة يتبعه المستر كوبكلي مدير بوليس لواء السامرة ومفتش السجن المستر لامب وخلف هؤلاء علي جاويس وخلف الجميع ذكي القدسي ولم يكن معهم اي ضابط بوليس عربي فاقتربت من سعادة المدير وحييته وقد كنت سمعت انه يجيد اللغة التركية فأنست بذلك وقلت في نفسي لا بد لي من بث شكواي لحضرة المدير وما انا فيه من ارهاق وتشديد .

اما المستر مفرو كورداتو مدير الامن العام فتوسط القامة مملوء الجسم ذو عينين عسليتين وشاربين صغيرين تعلو وجهه ابتسامة لطيفة وتلوح عليه امارات الذكاء وقد وضع على احدى عينيه نظارة وبالجملة فهيئة الرجل جذابة ووجوده عندي فرصة قد لا تسنح بعد فرأيت ان اغتنمها وان لا احجم عن بثه شكواي وفعلاً بدأت بذلك فقلت : يتبع

طولكرم سليم عبد الرحمن

***

مذكرات سجين

٢٣

قلت لسعادة مدير الامن العام المستر مفري كورداتو بعد ان حييته التحية اللازمة «اريد يا سيدي ان اعرض على مسامعك ما اقاسيه من الضيق والعذاب اللذين لا يلاقيهما سجين غيري وما حاق بي من الجور والعمل غير القانوني وحسبي من ذلك أن ابين لحضرتك منع ادخال الطعام الي من الخارج كما صرح بذلك قانون السجون وهزال جسمي وضعف قواي اكبر شاهد على ذلك ولو كنت تعرف صحتي من قبل ورأيتني اليوم لهالك الفرق الشاسع!! انظر الى هذا الضعف الشديد البادي على وجهي وجسمي من جراء الطعام الذي يقدم الي والذي لا يمكن ان يأكله انسان فأرجوك ان تأمر بالترخيص الي بأن اتناول طعامي من الخارج كما هو شأن جميع المساجين في القدس وعكا وغيرهما اذ انه غير خاف عليك ان الموقوف لا يمنع القانون عنه الطعام الذي يريده وادوات النوم الا بعد الحكم فألتمس انصافك في هذا الامر».

وما كدت انهي كلامي الذي كنت الفظه بتأثر وحدة حتى بدت علائم الانفعال على وجه سعادة المدير فالتفت الى المستر كويكلي مدير بوليس نابلس مخاطباً اياه بالانكليزية فترة من الوقت علمت منها انه يكلمه بخصوص شكايتي، وما اتم كلامه حتى خاطبني المستر كويكلي باللغة العربية قائلاً: اذا كنت تريد ان تتناول الطعام على حسابك فيمكنك ذلك وانا سأصدر امري بالترخيص اليك بأن تحضر طعامك من اي مكان تشاء على شريطة ان يفتش الأكل الذي يؤتى به من الخارج اليك، فقلت له شكراً جزيلاً يا سيدي على ذلك. واعدت الحديث الى سعادة مدير الامن العام قائلاً: لقد بقي لمحاكمتي عشرون يوماً وبما انه يوجد في هذه القضية اشياء مهمة، وحقائق ناصعة، واعمال لم تكن لتخطر على البال فاطلب اليك ان تشرف لحضور جلسات المحاكمة فترى غرائب وعجائب، فهز رأسه مبتسماً وقال: اذا تمكنت فاني سأحضرها وسنرى ما يتم، ثم ودعني وهو يتفرس في وجهي وحييته خارجاً من باب غرفتي الحديدي، وعدت الى رفيقي في الغرفة الذي [illegible]ن احضره الي السيد عابدين الخشيمي وهو شاب في مقتبل العمر يسمى سعيد افندي عبدالجليل من وجوه قرية جوريش التابعة لقضاء نابلس وكان متهما في القاء قنبلة على بيت فضيلة قاضي نابلس الشرعي واخذت في الحديث معه وقد كدنا نطير فرحاً وسروراً لصدور الامر باحضار طعامنا من خارج السجن لأننا قضينا مدة اربعة اشهر ونصف ولا اكل لنا الا قليل من العدس المفعم بالسوس وبضعة ارغفة لا يأكلها حتى جنود الاستحكامات الحربية المحصورون، وبدأنا نهنئ انفسنا بنوالنا القوت الذي كدنا نفقد حياتنا بسبب رداءته حتى هزلت اجسامنا وضعفت عضلاتنا وقوانا وكنا في حالة يرثى لها ولم يمض علينا قليل من الوقت حتى جاءنا ذكي القدسي هاشاً باسماً فقال: آه آه يا ابا العبد نلتها والله، وهذا المدير يريد ان يتعبنا في طعامك صباح ومساء ولكن لا بأس فعمل الخير لله وليس لك وانما احذركما من ان يفهم احد المساجين ذلك، وبعد ان تجاذبنا امثال هذه الاحاديث غادرنا وعاد ومعه طعام الظهر وعليه ما لذ وطاب وبدأ الكرم الحاتمي الذي اشتهر عن اهل نابلس الأفاضل يتجلى بأجلى مظاهره، فأتانا في اليوم الاول عشاء من حضرة الفاضل فريد افندي العنبتاوي وفي اليوم الثاني من الوطني الغيور حافظ بك طوقان فأمين بك التميمي فالدكتور مصطفى بك بشناق فبقية الوجوه والاعيان فرداً فرداً، وبقينا على هذه الحال حتى انتهاء المحاكمة وقد بدأت اجسامنا بعد ذلك الضعف والهزال تنتعش رويداً رويداً وغدونا ننتظر المحاكمة براحة وطمأنينة فلما دنت ساعتها جاءني الى باب السجن بعد الاستئذان حضرة المحامي البارع محمد افندي كنعان، اما الحديث الذي دار بيننا فالى الآتي:

يتبع

طولكرم — سليم عبد الرحمن

مذكرات سجين

٢٤

حضر المحامي محمد افندي كنعان ويصحبه ضابط البوليس ابرهيم افندي البيطار و يوسف افندي حبيب الى باب السجن الخارجي فأخذني ذكي القدسي لمقابلتهم . فلما دنوت من الباب الحديدي قال لي محمد افندي كنعان: حاولت كثيراً ان اراك قبل الآن فلم اتمكن ولم يسمح لي بذلك فعذراً ان تأخرت عليك حتى اليوم ؛ وها قد دنت ايام المحاكمة فكن هادئ البال مطمئن الفكر فلا بد من ظهور الحق وزهوق الباطل ان شاء الله تعالى، ولم يرخص لنا بمواجهتك الا بعد ان اخذنا اذناً رسمياً من خير الدين بك بسيسو ، وها قد حضر معنا ابرهيم افندي فلا تفتكر يا اخي فالعدالة ستتجلى في محكمة نابلس التي لا يؤثر عليها اي مؤثر وعساك ان تكون مسروراً بقرب ايام المحاكمة فشكرت له غيرته ورجوته الاكتفاء بشهود الدفاع الموجودين في فلسطين ، اما الذين في خارجها فقد لا يتمكنوا من الحضور وحينئذ يمكن صرف النظر عنهم ، وشكرت رفيقه يوسف افندي حبيب، و بعد ان ودعاني وذهبا عدت الى مقري في السجن و بت انتظر الايام القليلة الباقية للمحاكمة .

وبعد بضعة ايام طُلبت لغرفة البوليس العليا فوجدت فيها مفتش البوليس حسن افندي محمد وعنده المحاميين القديرين عثمان بك بشناق وحسن افندي العنبتاوي و بعد ان صافحاني قدما لي ورقة وكالة كتبت باسمهما واسماء المحاميين البارعين عوني بك عبد الهادي وفهمي بك الحسيني وابكار يوس بك والشيخ راغب افندي ابو السعود ، فأمهرتها بتوقيعي و بعد ان مكثت معهما قليلاً عدت الى السجن مرتاح الفؤاد منشرح الصدر

وفي اليوم التالي سار بي ذكي القدسي الى باب السجن الخارجي واذا بي ارى عن بعد فتى صغير السن في مقتبل العمر يسمى نمر حامد اتى ليزورني فلم يرخص له ابو داود ان يقترب مني فيصافحني بل اكتفى بأن يكلمني عن بعد فسلم عليّ نمر حامد بحماس شديد وقال لي انه بقي له ثلاثة ايام وهو يحضر لنابلس ويعود لطولكرم ولم يتمكن من مواجهتي حتى احضر مضابط عديدة لعابدين بك، وابلغني ان محاكمتي ستجري قريباً وان جميع اهل طولكرم وقضاها يهدونني تحياتهم الحارة وشوقهم الشديد فشكرت غيرته وابلغته سلامي للجميع . و بعد هذا بيومين حضر حسن افندي حامد فزارني وهكذا بقيت الزيارات تتوالى عليّ ولكن بصورة متقطعة .

وفي مساء ذات يوم نقل احمد الرديسي الشقي الشهير الذي كان مسجوناً في الغرفة المقابلة لغرفتي الى جواري ، و بعد بضعة ايام حضر الى السجن عابدين افندي الحشيمي وزار احمد الرديسي زيارة طويله وقبل أن يصل الى غرفتي جاءني ذكي القدسي وقال لي يا ابا العبد ها هو البك قادم فلا تنسني من كلمة خير تقولها امامه فقلت له سأفعل ، وبعد فترة قليلة وصل لعندي عابدين افندي الحشيمي وامر ذكي بفتح الباب الحديدي ففتح ودخل مبتسماً فمد يده وصافحني وبدأت اتمشى واياه في قاعة الغرفة واما ما بدأ به من الكلام فالى العدد القادم

يتبع

طولكرم — سليم عبد الرحمن

مذكرات سجين

٢٥

قال لي عابدين افندي الحشيمي كيف حالك يا ابا العبد عساك بخير فشكرت له لطفه . . ! وقلت له انني مسرور جداً لقرب ايام المحاكمة التي ستظهر الحقائق فيها واضحة جلية .

فقال لي ارجو يا سليم ان تظهر المحكمة براءتك فأكون ممتناً جداً وانت تعلم يا ابا العبد ما بيننا من ذكريات الماضي وانني ما زلت اذكر ايام دمشق وعهد الحكومة العربية ، وان كل ما بلغك عني هو محض اختلاق ، وان كنت تراني اذهب لعند الرديسي او غيره من المساجين فهذا لا اهمية له . وانني مستعد لتنفيذ كل الطلبات التي تؤمن راحتك بهذا السجن .

وبعد انتهاء عبارات المجاملة ؟! بيننا ودعني وذهب ، فأغلقت على نفسي الابواب الحديدية كما كانت وعدت افكر فيما انا فيه وما اراه واسمعه من عابدين افندي وما يصلني عن احمد الرديسي من الاقوال بشأن ما يلقن من الافادات وما يعمل له من الاكرام والتجلة بالرغم عن كونه من كبار الاشقياء وقد أُلقي عليه القبض بعد ان جرح ، فتيقنت ان القوم يرمون الى مخادعتي لاسكت امام المحكمة فلا افضح ما يعملون ، وقد اسفت اشد الاسف لهذا الموقف الذي لا يمكن ان يتصوره انسان .

وكانت جيوش الليل قد اخذت تطارد فلول النهار عند ما سمعت صوتاً ضعيفاً جداً يناديني من الباب الحديدي فاقتربت من الباب وتبينت المنادي من بين سجف الظلمة واذا بي ارى فتى في مقتبل العمر يحييني بصوت خافت عرفته من زمن طويل وهو الشاب نديم افندي السحن وقد انتهز فرصة غياب ابي داود للصلاة فقصد باب غرفتي خلسة وهي الغرفة المخيفة التي حظر على الطيران يمر عن سطحها ، وقد خاطر المسكين بنفسه على هذا الشكل ليحييني ويطيب خاطري . . .

وقد فاتحني السيد نديم الحديث بقوله لقد القيت بنفسي في هذا السجن خصيصاً لاراك فلا تفتكر فالحق لا بد وان يعلو والناس كلهم في الخارج يتنسمون اخبار قضيتك ويعتقدون اعتقاداً جازماً بأنها قضية مزورة وهم لا يشكون مطلقاً بتبرئة المحكمة لك وفضلا عن هذا فانني أبلغك سلام كافة محبيك . . .

وما كاد نديم افندي ينتهي من ايراد هذه الكلمات القليلة حتى قفز كالمذعور عائداً لجهة المساجين الذين كانوا يتناولون طعام العشاء حسب العادة في ساحة السجن .

وكأني بأبي داود الذي عاد آنئذٍ من « مرضاة ربه ! » قد لمح بأن نديم افندي مرّ من امام باب غرفتي الخارجي فانهال عليه يؤنبه ويسأله . . . . فتظاهر هذا الفتى الصغير بأنه يجهل ان هنالك غرفاً فيها مساجين فانطلت الحيلة على ابي داود وقضي الامر ، والا لو ان ابا داود علم بأن ذلك الفتى قد قصدني واجتمع بي وتحدث اليّ سراً لما وسعه السجن ولسمع صدى عقابه كل الناس !!!

مضى على هذا الحادث وما قبله مدة من الزمن ، وكانت الايام تعدو مسرعة ولم اعد اشعر بوحشة ما بعد ان أحضر لعندي السيد محمد سعيد عبد الجليل من جوريش فكاد بلطفه واحاديثه الطلية ان ينسيني مرارة السجن وظلمته ووحشته . وقد بقينا على تلك الحالة طيلة تلك المدة . وفي ذات يوم جاءني محمد سعيد افندي العبد الجليل هاشاً باشاً ، وكان قد اجتمع الى البوليس المدعو اسعد العمد على باب غرفتنا ، فسألته عن اسباب سروره فقال : انني انقل اليك خبراً جيداً وهو ان هذا البوليس الذي هو مساعد لذكي القدسي بمحافظة السجن وادارته توجد بيني وبينه صداقة قديمة منذ ان كان يتعاطى صناعته وهي عمل الاحذية ، وقد جاءني اليوم وقال انه مستعد لأن يعطينا ما نريده من السكاير وتوابعها وكل ما نتوق اليه من اخبار الخارج ، ويتكفل فوق ذلك بارسال ما نود ارساله من التحارير لنابلس او خلافها ، وفعلاً ها هو قد اعطاني كمية من السجاير والكبريت وعند غياب ابي داود في صباح كل يوم سيجيء ليسلمنا ما نحتاج اليه من الدخان واعطائنا الاخبار التي نصبو اليها ، ولذلك تراني مسروراً من هذا التوفيق الذي نلناه بواسطة هذا البوليس . . . واردف فقال :

أرأيت يا ابا العبد كيف ان الصداقة تفيد الانسان عند الضيق فهنئ نفسك وهنئني بهذا التوفيق

كنت أُصغي الى الرجل بدون ان انبث ببنت شفة . . ولما انتهى من كلامه ابتسمت قليلاً وهززت رأسي بفتور فهال الرجل ما ابديته من عدم الاكتراث لهذا الخبر المفرح على زعمه ولحظ امائر الريب تبدو على وجهي مما عرضه علينا رجل البوليس من خدمة ، فسألني ان اصارحه برأيي والحف في السؤال فقلت له :

انك واهم يا سعيد افندي بهذا الخبر واني ارجوك ان لا تمكن هذا البوليس من الاجتماع بي مطلقاً ، واذا كان يريد ان يقدم لنا خدمة فلتكن مقتصرة على اعطائه الدخان اليك فقط وحاذر ان تسلمه تحريراً ما او ان تسر اليه خبراً ، واياك ان تتأخر عن افهام غلام البوليس هذا ! بأن سليماً قد عرف التعليمات التي تلقاها والدور الذي يحاول ان يلعبه ، وافهمه ايضاً ان سليماً ليس بغبي وانه لا يود ان يراك مطلقاً . . .

واردفت فقلت : ارجو ان تعلم يا سعيد افندي ان البوليس اسعد العمد هذا قد أُرسل خصيصاً ليكون شاهداً علينا بعد ان يأخذ منا تحريراً او خبراً ما ، فاقصر البحث معه على الدخان فقط . فقال لي انك تسيء الظن يا ابا العبد بهذا الرجل البسيط الذي لا يمكن ان تخطر مثل هذه المسائل في باله وانا اعرفه قبلا و . .

فقاطعت كلامه وقلت :

— كفى يا سيد سعيد ! واعلم انني في حالة اكاد أسيء معها الظن بنفسي . ولولا انني طلبت احضارك لعندي لاسأت الظن بك انت ايضاً

هنا اقتنع رفيقي في السجن بقولي واكتفينا بتناول السجاير يومياً من اسعد العمد الذي كان مساعداً في السجن لذكي القدسي .

ففي ذات يوم بعد ان مضى على تعارفنا معه مدة جاء واخذ يقص علينا حديثاً موعدنا به العدد القادم

يتبع

طولكرم — سليم عبد الرحمن

مذكرات سجين

٢٧

حاول اسعد العمد وكان بوليساً مساعداً لذكي القدسي ان يحصل مني على تحرير او رسالة للخارج بطلب دراهم مثلاً او توصية بأمر او ماشابه ذلك فلم تجده محاولاته نفعاً ، وكان كلما ازداد الحافاً زدته مطلاً وتسويفاً الى ان اقتربت ايام المحاكمة وهنالك افهمته صراحة بأنني اعرف الدافع الذي يدفعه الى هذه الخدمة الزائفة التي يعرضها علي وطلبت اليه ان يترك الالحاف فيما لا فائدة له منه . هنالك قطع رجاء الرجل وخفف من تردده نحو غرفتنا في السجن

ولقد ذكرتني حادثة هذا الجاسوس بحادثة من نوعها جرت لي مع البوليس محمد حمزه الذي أدخل الى غرفتي كمسجون للتجسس علي مرة ولا ارى بأساً من قص خلاصتها على القراء تفكهة لهم قبل ان اسرد حوادث المحاكمة

جاءني ذكي القدسي في يوم اشتد حره وطلب الي ان اغسل غرفتي وانظفها فرفضت طلبه وقلت له ان القانون يمنع تشغيل الموقوفين قبل الحكم عليهم فغضب وزمجر وتوعد وغاب برهة وما لبث ان عاد يصحبه سجين يلبس ثياب السجن ليست لي به معرفة سابقه ومعه آخر من البدو واخذ يهددهما امامي ويأمرهما بتنظيف غرفتي يومياً ثم عاد مستصحباً معه البدوي وترك السجين عندي وهو شاب في مقتبل العمر اسود العينين والشعر تدل ملامحه على انه قروي ولكن اسنانه الذهبية تنم على انه من اهل اليسار واسمه محمد حمزه وعرفت فيما بعد انه من رجال البوليس . ولما خلوت بالرجل سألته من اي البلاد يا اخا العرب ؟ قال من سيرين . واردف قائلاً : لقد حُكمت بنصف شهر اقضيه في السجن من قبل القومندان لوشاية صدرت بحقي ولبعض اعمال اتهمت بها وها انت تراني سجيناً ولا شك في انك موافقي على ان دائرة البوليس لا ترعى ذماماً ولا تحفظ خدمات احد . وكان يزمجر ويشدد النكير على الضباط وتكاد في اثناء حديثه تطفر الدموع من عينيه وهي دموع عرفت بالبداهة انها دموع تمساح ولكن صاحبنا لم يفكر في انه وقع على ثعلب !!!

ولقد اكد الشك عندي تعرض الرجل لقضيتي وتصديه لانتقاد البوليس بشأنها . والخلاصة انني فهمت ان الرجل انما أرسل خصيصاً لتسقط كلمات من فمي قد تنفع اخصامي وكان كلما اندفع في انتقاده لدائرة البوليس ازددت يقيناً بجاسوسيته . وكان في الآخر ان عولت على وضع حد لتلك المهزلة فقاطعت الرجل في حديثه وقلت له انك واهم يا هذا فانا اعتقد ان الحكم عليك كان عادلاً وان كنت اعتقد انه حكم كاذب ! وغاية ما ارجو اليك الا تحادثني بعد مطلقاً لأن حديث المسجونين الى بعضهم ممنوعاً ثم صحت على ابي داود فهرول مسرعاً فقلت له يا ذكي اريد ان اقول لك بصريح العبارة انني لا ارغب بوجود جاسوس في غرفتي ، وان هذا الرجل الذي يعرف قوانين البوليس جيداً يجسر على مخالفة ذلك القانون ويحادثني فهل لك ان تلقي به الى الخارج وان لا تريني وجهه بعد اليوم واجرك على الله ؟ !! قال انه سجين مثلك ولا علاقة له بالبوليس كما تتوهم ومع ذلك فها انا مخرجه من عندك ، ثم التفت اليه وقال هلم ياحمزه اتمم شغلك واخرج . فأخذ الرجل يغسل الارض واذا بقدمه تزل ، واذا به يقع على رأسه فيشج ويسيل دمه واذا بذكي يركض اليه ويحتضنه ويخرج به ليداويه واذا بالله يجزل « ثواب » الجاسوس ولكن فوراً دون ان يحمله مضض الانتظار الى يوم يبعثون !!!

يتبع

طولكرم سليم عبد الرحمن

***